القلم لا يكتب وحده

مجموعة قصصية

الطبـعـة الأولـــى
2020م- 1441هـ

ديـــوان العـــرب
للنشر و التـوزيـــع

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: القلم لا يكتب وحده

اســـم المـؤلف: حسناء عبدالفتاح كردية

التصنيف الأدبي: مجموعة قصصية

رقـم الإيـــداع: 13953 / 2020

الترقيـم الدولي: 0 - 08 - 6830 - 977 – 978

تصميـم الغلاف: محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: هبة ماردين

التنسيق الداخلي: محمد وجيه

رقـــم الطبعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

القلم لا يكتب وحده

مجموعة قصصية

حسناء عبدالفتاح كردية

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

حقوق حلمك

إهداء

أقف على حافة
حلم
يُغيّب انتظارٌ خلف مقلتيه
ويفتح طريق سلام لعابري كفّيه
مرصّعاً بحفنة أمل .....
أهديه إلى :
و سادتيّ الروح وزهرتيّ القلب ...
أبي و أمي
نجوم تألّقت بها سماء حياتي ...
أخي و أختي
و أصدقائي
شجيرات الياسمين الصّامدات في وطني رغم الجراح

حسناء

****

الرصاصة لا دين لها

سأشتاقك... كم وددتُ أن أقولها بطريقةٍ أخرى... كم وددتُ أن تسمعها وتعلم بها... كم وددتُ تجسيد خوافيها.

كلما أغلقتُ بابك ورائي يُفتَحُ في وجهي ألف بابٍ شاقٍ من أبواب الأشواق والخيبات، أبواب أسى لا يكاد ينغلق أحدها إلا ليفتح آخر يتفرع عنه آخر، ثم آخر.

بعض الناس يرون في كثرة الأبواب منافذ لآفاق جديدة، وأين هي هذه الآفاق في حضرة أفق واحد هو أنت..... وأنت فقط.

كان حديثاً تُسرُّ به إلى نفسها المكلومة، حديثاً اعتادت عليه كلّ يوم وكلّ ليلة، بل كلّ لحظة ودقيقة وثانية.

هذا الاعتياد جعلها تفتقد هذا الحديث كلما نسيته نفسها أحياناً لبضعة هنيهاتٍ لسببٍ أو لآخر.

ربما لم يكن يعلم وربما علم، ولكنّه فضّلَ موقف الجاهل بأمر قد يفتح عليه أبواب جهنّم فهو يعتبر جهله جداراً يقيه لهيبها وحرّها الشديد، ويمنعه أن يقاسي تبعات محيطٍ واسعٍ يؤمن بمخلفات تاريخ عفا عليه الزمن.

لم يكن يسعها سوى الانتظار، والتفكير في مستقبلٍ مجهولٍ كما لم يسعه هو إلا التوق لحديث يبلغ في أقصى غاياته صمت مطبق لا يقطعه إلا صوت مفاجئ من الأصوات المسموعة المحيطة لكائنات بشرية عاقلة أو كائنات وجمادات غير عاقلة كصفير رياح شديدة تهز النوافذ.

ويعود الصمت أدراجه لينقلب إلى حديث صاخب مع النفس كانت تغرق في بحره بعد كلّ لقاء من لحظة إغلاق الباب وراءها حتى موعد اللقاء التالي.

ويتراءى لها فجرٌ جميلٌ ممهورٌ ببريقِ قوس قزح بعد كلّ ليلة تمطر فيها عيناها أنهاراً من الدموع فتنقلب فسحة الليل الغاضب إلى فسحة أمل.

لماذا نبحث عن الحب وحين نجده نهرب منه، ونضع حواجزاً وحدوداً يفرضها علينا واقع نعيشه بأجسادنا وتفارقه أرواحنا في حياتنا قبل مجيء آجالنا، تتنازع فيه أشلاؤنا كلّ المعطيات لنصل في النهاية إلى واقع ملموس بعيدٍ عن كلّ ما هو محسوس، ونتفاجأ بالعمر يسرقنا لنعود كما بدأنا نقطة في اللا شيء... في اللا حياة.

وتبقى أحلام البدايات من معطيات واقعنا الذي تسير إليه أقدامنا بتؤدة حيناً، وبعجلة حيناً ليكون لأقدامنا واقع مسموع في آنه مدعومة بآثار يمحيها غبار الزمان.

لم تكن بدايتها معه إلا حلماً جميلاً يغرس أسافين الأمل في قلبها تارة وأسافين القنوط واليأس تارة أخرى والقلب مدمى في الحالتين فهو كالسد الذي فتحت فيه فتحة لا يمكن رأبها.

فتيار العشق الجميل يتدفق باستمرار من قلب نابض بالمحبة فهو بالنسبة إليها الحياة ونبضها، هكذا كان وما زال دوماً بالنسبة إليها.

كان الاختلاف المذهبي في بلد اشتعلت فيه جمرات الحرب، هو المشكلة الكبرى فهذا السد الخارق الذي أنشأته مخلفات التاريخ كان ولم يزل هو العائق الذي يمنع ترسيخ هذا الشعور الإنساني بطريقة رسمية وعمليَّة لا لشيء سوى الحروب المحتدمة والصراع على أمور خلقت بأيدي البشر وكان أولى لها لو لم تكن.

لم يكن خيارنا.... كانت تعزّي نفسها دوماً بكلماتٍ رقيقةٍ نابعةٍ من أعماقها حين لا تجد من يعزّيها وإن وَجدت مؤنساً لها فإنه يلومها ويضع ألف حاجزٍ جديدٍ لم يكن.

ويراوح هذا الغباء الاجتماعي مكانه في بلدان كهذه ليطفئ آخر شعلة نور فيستحيل كل شيء إلى سواد مبهم.

ما مشكلتي طالما لا اختلاف في الدّين واختلاف المذهب شيء طبيعي في عالم هو جمع لعوالم كثيرة متشعبة لا نهاية لها!!..... قالت لصديقتها.

فأجابتها: يا عزيزتي... الإرثُ والعاداتُ والتقاليدُ والأهلُ والحربُ... ولا تنسي الحرب.

وأتون جهنّم المسلّط بقوة على كلّ من يحاول أن يسلّط الضوء على موضوع كهذا ويحمل شعار سلم في عالم المذاهب الدينية المتناحرة.

إجابة أخمدت شعلة الأمل المتقدة...

هذا الصراع التاريخي الذي زُرعت بذوره منذ القدم لتغذيها أيدي الحقد والشر فأثمر حرباً دامت لعهود وعهود وأمست تاريخاً طغى على التَّاريخ بكلّ ما فيه ليكون منارة حقد أعمى لكل من سيولد ويربو في هذا العالم اللا متناهي، الأحقاد والمآسي.

كان يدرك تماماً خطورة العاصفة الهوجاء التي تعصف بهما فأبقى النوافذ مغلقة وعمد إلى إحكام أقفالها لئلّا تعصف بها الريح المدمرة فتدمّر محتويات الغرفة التي تقوقع فيها متجنباً الغرق في بحر متلاطم الأمواج.

مع تكرار صوت رنين الهاتف الموجود على حافة سريرها الذي استلقت عليه كالحاضرة الغائبة، الحاضرة جسداً والغائبة عقلاً وروحاً برائعتيها الشاردتين في سقف غرفة تمنّت لو لم يكن موجوداً.

آهٍ كم أكره الجدران والسقوف... كان هذا ما تقوله لنفسها دائماً كلما اختلت بنفسها وحيدة في تلك الغرفة التي شهدت أهم أحداث حياتها المزجاة بالبسمات والضحكات والزّفرات والآهات والعبرات حتى المقالات التي كتبتها منذ أن تخرّجت من كلية الصحافة كانت لها هذه الغرفة شاهداً وبصيراً.

لو لم يكن هناك سقف لانطلقت عيناي تجوبان أرجاء الفضاء... لسافرت مع الغيوم مقتادة إياها لتمطر في الصحارى ومناطق الجدب فتحلو بهما الحياة ولصاحبت في الليالي المقمرة القمر وجيرانه من نجوم السماء وربما أصادق نجماً يكون مرسال غرام بيني وبين من أهوى فهو كالنجوم والنجوم دوماً على لقاء.

قطع رنين الهاتف المتواصل حديث نفسها، رنت إلى الهاتف المزعج ممتقعة اللون وانتابها إحساسٌ مفاجئٌ من القلق، رفعت يداً ثقيلة إلى السماعة وأمسكت بها .

كان قلبها ينبض بقوة مرددة في نفسها عساه يكون طارقاً يطرق بخير.

_مرحباً بك سيدي المدير.

كانت عبارتها هذه هي العبارة التي قالتها قبل أن تفغر فاهها عجباً وحيرةً وألماً، منصتة متابعة لحديث مديرها على الهاتف.

كانت مكالمة هاتفية سريعة ولكنها ثقيلة حسبت دقائقها القصيرة كأنها أعوام طويلة.

سأكون جاهزة بعد عشر دقائق.

أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها وراحت تردد في أعماقها... سبق صحفي... سيارة مفخخة... معلومات تفصيلية دقيقة... صور فوتوغرافية واضحة.

يكاد رأسي ينفجر...

كانت السيارة المفخخة تعني لها دوماً ضحايا جدداً أبرياءً وسيلاً من الدماء المراقة على أرض وطن لم تشبع بعد من شرب الدماء

ألم يصب هذا التراب بالتخمة بعد؟

لماذا استعاضت الأرض عن الماء بالدماء فأصبح مشروبها المفضل وغدت مدمنة عليها سَكرى بها فما عادت تتخلى عن شربها كأنها مشروب مباحٌ دينياً وإنسانياً.

لم يكن مشروباً مباحاً، لكنه أصبح متاحاً في هذا البلد الذي تنهش جسده الحرب وتقضي على خلاياه خلية تلو أخرى.

وحبيبها المموَّه بهيئة الصَّديق هو المصوّر المرافق لها في جميع جولاتها ورحلاتها والمصدّق لجميع مقالاتها وأخبارها بصوره الفوتوغرافيةِ الدقيقةِ.

لمَ لمْ تأخذ الصورة يوماً طابعاً مختلفاً وشكلاً جميلاً لعاشقين متيّمين تائهين في قصة عشق بطلاها أنتـ وأنا؟

كانت هذه المرة الأولى التي تنبَّهت فيها إلى عدم وجود صورة تذكارية تجمعها مع حبيبها الصديق رغم سنوات عملهما الطويلة معاً.

استنزفت كل أفكارها التي أثارتها وصعّدت من وتيرتها رائحة البن المنتشرة في أرجاء الغرفة وهي ترتدي ملابسها بسرعةٍ كبيرةٍ ناظرةً إلى فنجان القهوة المحضَّر حديثاً والذي وضعته أختها الصغرى على منضدتها، كانت ترنو إليه وترتشف منه رشفةً كلما مرت بجانبه، وهي تعبر الغرفة جيئة وذهاباً وكلما رشفت منه ظهرت ابتسامةٌ خفيةٌ على ظاهر شفتيها رغم توترها الشديد، إنها القهوة وللقهوة في حياتها حكايةٌ أخرى....

فالقهوة مشروب الحبّ الملائكي المنكَّه بنكهة الحنين والمناسب لكل زمانٍ ومكانٍ ولا يطيب إلا بصحبة من نحب والرجل الذي سلب فؤادها كان يتعمَّد في كل رحلة عمل ترافقه فيها إلى تجرع قهوته من كأسه الكرتونية وإنهائها بسرعة ليسطو سطواً محبباً على كأسها مخاطباً إياها ضاحكاً:

للقهوة من كأسك مذاقٌ آخر....

وتغيب في ذهنها كلمة الآخر لتعود عوضاً عنها كلمات أخرى لطيفة تعبر عن مذاق القهوة فغدا كمن يقول لها:

للقهوة من كأسك مذاق ألذ.

همهمت بصوتٍ واضح وأخذ تفكيرها يتجاوز مذاق البن إلى أثر أحمر شفاهها المطبوع على الكأس فخيل إليها أن شفتيه تطبعان مع كل رشفة من الكأس قبلة على شفتيها وأن مذاق القبل هذه هو الأشهى على الإطلاق وهو المعنى المبطنُ لعبارته.... نعم نعم هذا هو قصد كلماته.

كادت تسترسل في أفكارها العذبة لولا صوت أختها رؤى الذي علا معلناً وصول السيارة.

هذه المركبة التي تعودت أن تقلَّهما من مكانٍ لآخر كانت تبدو لهما كسفينة أحلام وردية تجري في نهر شحيح معاندةً للقدر وجلةً مترقبةً مجيء اليوم الذي تراوح فيه مكانها عالقة في مستنقعٍ من الطّين بلا حراك حيث لا يمكنها العودة إلى الوراء أو المضي قدماً.

أطلّت إشراقة وجهه من نافذة السيارة مرحبةً بها، مهللةً لوقع خُطواتها التي تلاحقها نظرات عينيه الممعنة بتفاصيل وجهها الدقيقة فبدت كعينيّ طفل ترقصان فرحاً عندما يرى ما حوله يكتسي حلة العيد المنتظر بعد طول غياب.

تبادلت عيناهما تحية صامتة قبل التحيَّة الكلامية، حيث جلست بجانبه في مقعد السيارة الأمامي فدنا منها مناولاً إياها حزام الأمان قائلاً والبسمة تعلو شفتيه: إليك حزام الأمان آنستي.

انطلقت السيارة تجوب أجزاءً من المدينة، وهما يتبادلان أطراف حوار عن الحدث الحاصل والذي هما بصدد تغطية تفاصيله معاً مبتوراً بفترات متقطعة من الصمت تختلف في عمقها ومدَّتها، ممّا فتح الباب أمام أفكارها الكثيرة المتنازعة فيما بينها لتطرح مجموعة من التساؤلات المعدومة الإجابة.

أين هي طيور الحمام التي كان هديلها يملأ سماء هذه المدينة التي أكاد لا أعرفها؟!

لماذا تخلَّت عن أعشاشها المنتشرة على سطوح المنازل وأعالي المآذن، لصالح قاطنين جددٍ هم جماعات من البوم والغربان السُّود فحلَّ النعيب والنعيق مصحوباً بصوت الانفجارات وإطلاق الرصاص وغدا الموسيقى التي تتغنى بها سماء مدينةٍ كلّ ما فيها يؤول إلى الخراب.

كان قلبها يختلج كلما علا عويل سيارات الإسعاف معلناً دنو منطقة الحدث وعلامات الاضطراب تظهر واضحة جلية على وجهها، أما غشاوة الخوف التي اجتاحت عينيها فقد أعمتهما عن أي شيء آخر حتى حبيبُها الجالسُ إلى جوارها بدا لها كأحد الأطياف الذي لم تعد خواطرها تلتفت إليـــه لانشغالها بأمر يطغى على كل الخواطر والأفكار والتصورات ولا مجال فيه سوى لمشاعر التأهب والرعب والأسى.

كان الصّوت الصادر عن الازدحام الخانق الحاصل في المنطقة القريبة من الحاجز الأمني المحيط بمنطقة الانفجار كصرير ريح شديدة يصمّ الآذان ويذهل العيون التي تُرجع البصر على الوجوه الحائرة المتابعة لسيارتهما مرَّة تلو الأخرى لتستشفَّ من شحوبها مقدار الرعب الذي يشعر به هؤلاء.

تجاوزا الحاجز الأمني بعد التَّعريف عن نفسيهما وتقديم التصاريح المطلوبة منتقلين إلى عالمٍ آخر هو شارعٌ من شوارع المدينة لكنَّه ليس كبقية شوارعها؛ فقد لطَّخت بقع الدم قسماً كبيراً من الإسفلت و تناثرت الأشلاء في مختلف أرجاء المكان الذي غدا ملعباً لمسرحية درامية، أبطالها الإعلاميون والمسعفون ورجال الأمن المحققون في الحادث بالإضافة إلى مجرمين لا زالوا مجهولي الهويةِ حتى آنه، وضحاياها نفوس بشرية تحوَّل معظمهم إلى أشلاءٍ متطايرة أمَّا من نجا منهم فكانت حالته من الحرج بحيث يصعب معه التَّصديق أنَّه لازال حيَّاً فهو إما مقطّع الأوصال أو مدمى بكليته بحيث لا يمكن معرفة مكان إصابته ومداها من خلال إلقاء نظرة سريعة عليه، كان المنظر مرعباً بلغ في غايته أقسى درجات الفظاعة.

ترجّلا من سيارتهما منطلقين باتجاه بقايا السيارة المتفحمة التي لا تزال النيران تشتعل في بعض أجزائها فأشار بيده إليها قائلاً لصديقته: سألتقط بعض الصور.

تسمّرت عيناها عليه وهو يقوم بالتقاط الصور وقلبها يطرق بشدة على باب صدرها كناقوس خَطرٍ ينذر بكارثة قبل وقوعها، فكانت الكارثة فعلاً حين سُمِع هديرٌ قويٌّ لإطلاق نارٍ مستمرٍ بدون توقف، صادرٍ عن شخصين مجهولين يستقلّان سيارة مسرعة مستهدفين بذلك الحاجز الأمني و كلَّ شخص آخر في طريقهما استهدافاً عشوائياً فسقط بعض عناصر الأمن صرعى حال إصابتهم وأخذ الناس بالصراخ والجري بعيداً مذعورين لشدة هول الموقف.

تابعت السيارة المسرعة طريقها بنارها الموجهة عشوائياً إلى كلِّ ما يعترضها فإذا بظهر حبيبها هو الهدف الأوَّل، لم يكن أمامها سوى أن تدفعه بكلتا يديها بعيداً عن مرمى النيران التي أضحت هي هدفاً محققاً لها ليسقط أرضاً على مسافة ليست ببعيدةٍ عنها، أما هي فقد ارتمت بين أحضان الأرض العطشى للدماء كعادتها في هذا الوطن فسبقت قطرات دمها جسدها المصاب ووصلت إليها قبله ليلحق بها ويتمدد على الأرض بلا حراك.

هذا الشيء الذي اخترق جسدي يا لشدة إيلامه!! لماذا هو ساخن وحارق هكذا؟ كان هذا آخر ما قالته لها الأخرى التي تسكن عقلها وتتكلم بلسان حاله، هذه الأخرى التي لطالما تنازعت معها أفكارُها وكانت في كلّ مرة تعمد إلى فتح جبهة بين عقلها وقلبها؛ فكان هذا الصراع الدائم بينهما الذي لا يهدأ، أما الآن فما كان

أمام الأخرى إلّا أن تهدأ وتهدأ إلى الأبد فقد زالت كل الحواجز التي وضعها العقل ومنها هذا الحاجز المذهبي الخرافي الذي اختلقه الواقع فقضى على حياتها المعنوية والعملية وحياة آخرين كثر، وانتصر شعور الإنسان وظهر الحب بكلِّ معانيه وكينوناته عندما هبَّ إليها حبيبها مسرعاً محتوياً إيّاها بين ذراعيه ممعناً بذهولٍ وأسى في وجهها الكالح، كان يمسح بيده قطرات العرق البارد التي تراكمت على جبينها و دموعه تنهمر بلا توقف، أحنى رأسه إليها فكانت القبلة التي طبعها على جبينها والتي شعرت من خلالها بحرارة أنفاسه هي بداية النهاية لحبٍّ فضّلَ أصحابه إخفاءه في كهفٍ مظلمٍ فانهار الكهف عليه حتى قبل أن يقررا الخروج به ليرى ضوء الشمس الساطع.

هل يُعقل أن ننتظر دوماً رصاصة لا دين لها لنلحظ أن الإنسانية التي تعتمرنا هي أقوى من أي حاجز آخر؟ هل يُعقل أن نتركها تكون سبباً في محو أثر قبلة دينها المحبة والتسامح والسلام؟

لم تكن تعلم أنها ستكون يوماً جزءاً من سبقٍ صحفي هي إحدى ضحاياه كما لم تكن تعلم أن الصورة التي تمنّت دوماً أن تجمعها مع من تحب، ستكون صوراً تتناقلها لهما وسائل الإعلام ناقلة لحدث هي أحد أعلامه.

أما هو فلم يخيّل إليه يوماً أنّ عينيه ستلتقطان آخر صورة لها وهي مرتمية هكذا بين ذراعيه وأنّ هذه الصورة ستبقى خالدةً في مخيلته إلى الأبد.

كان صوته في البداية عالياً صارخاً يرنّ في أذنيها مكرراً لا تغمضي عينيك ثم بدأ يخفت ويخفت .... ويخفت.

****

أنَّاتُ العصــافــير

هي أم وأب في آنٍ معاً، دورٌ عجيبٌ لم يخيّل إليها يوماً أنها ستلعبه بكلّ قناعة وقوة بعد أن فرضه عليها واقعها البائس فبدد كل أحلامها الجميلة التي حلمت بها منذ نعومة أظفارها وأحالها إلى سراب.

كم تمنّت زوجاً طيباً ومعيناً لها في حياة ملؤها الاستقرار والسعادة تزقزق في سمائها عصافيرهما الصغيرة فيمدا إليها كفيهما بالنّوى لتربو وتغدو قادرة على مواجهة الحياة بكافة تعقيداتها، وتكون لهما لا محالة سنداً في خريف عمرهما القادم بتفاصيله المجهولة التي يخبئها القدر فامتهنت التمنّي حتى جاء اليوم الذي جاد القدر فيه عليها وما كان لها إلا أن تكون سعيدة بهذه العطية التي كانت رجلاً أصبح بمثابة كلّ شيء بالنسبة لها، كان الأب والأخ والصديق الذي لطالما تمنّته يوماً وازدادت تعلُّقاً به يوماً بعد يوم فكان رابطاً قوياً بينهما، وحبلاً متيناً ازداد متانةً بعد إنجابها لأطفالهما الأربعة.

لم تكن تعلم معنى الفقد ولم تختبره أبداً، حتَّى جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي أحال ربيع أمنياتها إلى شتاء عاصف وكأنَّ هنالك تنسيقاً بين الطبيعة وأحداثها؛ فملامح الشتاء القاسية التي ظهرت جليّة في تلك الليلة متمثلةً برياحها الهوجاء

وبحرها متلاطم الأمواج، كانت نبوءة لكلّ حدث مؤلم متوقع أو مفاجئ، أما هو فكان يقود مركبه كعادته كل ليلة لسحب شباك الصيد التي زرعها في البحر، وإعادة رميها مرة أخرى شاكراً الله على الرزق الوفير تارة أو القليل تارة أخرى فهو ذو نفس راضية لم تعترض يوماً على شيء مقدَّر، لأنَّها كانت تؤمن أنَّ الكسب لا يأتي إلّا مع العمل المخلص إخلاصاً نقيّاً لا شائبة فيه وأنَّ الرزق

القليل في يومٍ ما سيعوّضه رزقٌ كثيرٌ في يوم آخر، فحال الرزق في المجيء والرُّواح كحال كلّ شيء وشمس السَّعادة التي تشرق يوماً ستغيب حتماً لأيَّام غائمات بغيوم الهموم والآلام.

كان يرنو في كلّ مرَّة بشغف عميق إلى معشوقه متبدّل الملامح؛ فالبحر كان بالنّسبة إليه محبوبه الأزلي ورفيقَ صحبته الدائم، كم استثاره الشعر الأبيض المحتقن الزَّبد لهذا الكهل الذي بقي دوماً كما عهده ملجأً لوشوشات قلبه، تستفزُّه أحياناً ضحكاته الهادرة على جدران شاطئه فيخيّل إليه أنّه يتملّقه حتى يعود ليخفف من حدَّته بتموّجه في هدوء مبتسماً على استحياء ابتسامته الوادعة فيغمره براحة لها سعة أفق لازوردي أزرق ببعد غير محدود، لكنَّ هذه الرَّاحة سرعان ما تنجلي عندما يسمع نبأ غرق أحد أصحابه فيحل مكانها حنق وغضب يخصّ بهما ذلك العجوز الغادر أزرق العينين في بداية الأمر ثمّ ينزل كامل سخطه على

السَّاعة الرَّملية التي ورثها عن صيَّاد عتيق هو والده الذي ذهب في غابر الأيَّام إلى رحلة صيد لم يعد منها حتّى الآن.

كانت عيناه تنظران إليها وتتابعانها بوجل المترقّبين، حبّة رمل تدفعها مثيلاتها من قمقم زجاجي صغير إلى آخر، حتى إذا بقيت حبَّة واحدة ما توانت عن رمي نفسها لتلحق بركب أقرانها معلنة انقضاء ساعة من أجل ثانيةٍ تلو أخرى تمضي تمثّلها حبيبات رمل منافقة كان حريَّاً بها أن تبقى على شاطئ اليمّ لتلهو بحرية مع أمواجه وزائريه فتمثل بداية أمل بدلاً من نهاية أجل، إلّا أنّه سرعان ما يغيّر رأيه فجأة عندما يقرُّ له خاطره أنَّ حبيبات الرمل هذه ما كان لها أن تكون حبيسة هذا القمقم الزجاجي الصَّغير لولا البشر فيتطاير شرار غضبه ليطال عالم الإنسان الذي هو بزعمه سبب كل كارثة حصلت منذ قديم الأزل وحتى الآن فتسطع في عينيه فجأة شمس براءة معشوقه نافية عنه كلّ الاتهامات عندما يصدح عقله قائلاً:

لو لم يبحر صاحبي في يوم عاصف لما مات غرقاً.

ويعود المعشوق إلى مكانه في قلب عاشقه متربّعاً على عرشه عازفاً على أوتاره ألحاناً هي مزيج من موسيقى العباب وأناشيد النوارس متبوعة برقصة لنثرات الفضة التي تنشرها خيوط الشمس السَّاقطة على صفحة مائهِ فتتقاذفها مويجاته، وتتزيَّن بها

لتبدو كعرائس صغيرة تدور في حلقة رقص واسعة بفساتينها اللامعة ويزيدها سحراً تلك الأضواء المتناوبة المتألّقة المسلّطة عليها وتبدو أكثر ألقاً مع إطلالة كل صبح لذلك كان يعمد دوماً أن يكون بين يدي محبوبه مع كل إشراقةٍ لشمس الفجر فيتداعى قلبه بين أحضانه وتبصر عيناه مشهداً هو الأروع على الإطلاق.

لطالما أنسته هذه الأشياء وغيرها أنه أمام أكبر بؤرة للغدر عرفتها الحياة يوماً فغاب عن ذهنه أن مأساة غرق صاحبه ووالده قد تتكرر مرة أخرى مرتدية ذاك الثوب القديم الذي حاكه الموت منذ أجَل لم يكن هو ذو علمٍ بتاريخه وخُصص لضحايا الغرق فارتدته الضحايا بشكلٍ متتابع حتى أصبح ثوباً رسمياً محتَّماً ارتداؤه على كل من يختاره القدر وكأنَّ أسماء البحَّارة مسجلة على وريقات مطويّة موضوعة في حوجلة زجاجيّة فيمدّ الموت يده إليها مقترعاً ليختار إحداها في حين يتكفّل القدر بالباقي في تهيئة المسببات لتكون نهاية البحَّار بالطريقة التي يحددها له.

كان مصرَّاً على الخروج إلى الصَّيد في تلك الليلة الباردة رغم تحذيرات أصحابه له بأن عاصفة هوجاء قد تهبُّ قريباً، فخرج واضعاً نصب عينيه أن يرجع إلى أهله غانماً محمَّلاً بأجود أنواع السَّمك الفاخر الغالي الثَّمن الذي قد يكفل له ولأسرته

عيشاً كريماً لأسبوع كامل على الأغلب دون أن يحتاج إلى رحلة صيد أخرى في هذا الجوّ القارس.

أما ذيول النَّصر التي كان يجرُّها خلفه فلم يكن يعلم أنّها ستؤول إلى ذيول خيبة ومرارة له ولأسرته لم يجربا نكهتها بعدُ فَهَمَّ بتقبيل أطفاله النّيامى مودّعاً، وعلت ضحكته لتبلغ عنان السَّماء وهو يحادث زوجته ويهمس في أذنها مغازلاً ماضياً بخطواته المتلاحقة في طريقه لبلوغ عتبة المنزل فشهدت تلك العتبة نظرته الحانية الرقيقة وهدهدت الحيطان روحه المتعلّقة بكل ما في ذلك المنزل من أثاث وبشر وأحسَّ بشغف هيام كانت تعقيدات الحياة قد ساهمت في سهوه عنه.

هذا الشّعور الغريب الذي لم يتملكه قبلاً كاد يمنعه من الخروج لولا نزعة الأنا... وإصراره على المضي في تلك الرحلة جعله يرمي وراء ظهره كل ما اعتراه من مشاعر تجاه أي شيء آخر فمضى قدماً.

خلا الليل الذي لبس ثوب هدوء مزَّقه صفير الرِّياح ووقع خطوات حذائه السَّميك على الأرض من السكينة مما جعله يشعر لأوَّل مرَّة منذ أعوام بوحشة زاد من هولها صوت حفيف الشَّجر وعواء الكلاب الضَّالَّة المنتشرة في الطريق.

استجمعت روحه قواها وتابع طريقه حتى وصل إلى الشَّاطئ المصطخب بموسيقى الطَّبيعة الغاضبة الهائجة كنادٍ ليليٍّ تزاحمت فيه أصوات تكاد جدرانه تنفجَّر من

شدَّة قوَّتها ولا تُطيق سماعها ومركبه المثبَّت بسلسلة إلى أحد القضبان الحديدية المغروسة في إسمنتٍ كان هو قد صبَّه سابقاً على حافَّة الشَّاطئ يترنَّح كسكّير راقص في حلبة هذا النَّادي، على وَقْع تلك الموسيقا الصَّاخبة فقفز إليه قفزة فارس على حصان هائج بنيّة ترويضه ورنا بطرفه إلى السَّاعة الرَّملية التي سقطت إثر الاهتزاز على أرضيَّة المركب فتوقف فيها الوقت بعد أن كانت موضوعة على أحد رفوف قمرة القيادة ، تلك الغرفة الصَّغيرة التي كان يعتبرها بيته الثَّاني ويقضي فيها معظم أوقاته.

أيُّ فألٍ سيءٍ يكون هذا؟؟؟!!

قال هذه العبارة مخاطباً نفسه التي اعتراها الخوف فحاولت جاهدة الانتصار على التوتر الذي سادها والذي كان واضحاً في عينيه الذَّاهلتين اللتين كانتا تنظران إلى البحر نظرة عصفور خائف من ذلك النّسر الذي يريد الانقضاض عليه فيتخبَّطُ في مختلف الاتجاهات ولا يدري أي طريق سيسلك.

مدَّ يديه المرتجفتين إلى دفَّة القيادة ممسكاً بها فشعر بثقلٍ شديدٍ فيها يصعب معه تحريكها.

كانت دوماً تلك الأمة الطَّائعة له سريعة التَّنفيذ لأوامره، فينساب خصرها يمنة ويسرة راقصاً رقصاً رشيقاً بتوجيه من كفَّيه اللتين تغمرانه بعطفٍ وقوةٍ، ثم جاء

اليوم الذي تمرَّدت فيه عليه بشراسة متلقية أوامرها من ذاك العجوز أزرق العينين فحاولت جاهدة التحرر من سيدها واستعصت عليه كما امتنعت عن أداء رقصتها المعتادة.

فانطلق مركبه بصعوبةٍ وبطءٍ مخترقاً العباب، كمن يحاول قصَّ قطعة قماش بمشرط غير حاد.

لم يرغب في العودة أدراجه دون تحقيق غايته رغم سوء حالة الجو فقد خرج ولا مجال عنده للتراجع.

كان الموج يزداد ارتفاعاً وصرير الرياح يزداد شدَّةً فيزداد معهما غضب الحصان الهائج وترنّحه مما جعل فارسه يخاف من سقطة ترديه صريعاً غريقاً في خضمّ هذا العجوز الخائن الذي يفتعل الأسباب لإفشال رحلته مما زاده إصراراً جعله يتشبَّث باللجام بقوَّةٍ لخوض المعركة إلى نهايتها وترويض هذا الحصان بلا كللٍ أو مللٍ منكراً الوحشة التي خلَّفها غياب ضوء القمر وشرارات البرق المتلاحقة التي تبعتها رعدات اهتزت لها جدران السماء ووجلت منها النُّجوم فاختبأت وراء جدار أسود غيَّب نورها وهي تَرقب الأحداث من بعيد متحيّنة الوقت الذي تستطيع فيه أن تسطع من جديد.

توجَّه بنظره إلى الأفق فشدَّ انتباهه جسمٌ مائيٌّ كبير كالجبل في علوِّه يزداد دنوّاً عندها بدأ خياله بصنع معجزات يجتاز معها المركب الحاجز المائي الضخم بكلّ سهولة وبراعة ليصحو هذا الخيال من شروده فيجد الوحش المائي الكاسر أمامه مباشرةً فاتحاً فاه مكشِّراً عن أنيابه فانقضَّ على المركب وابتلعه بقضمة واحدة وأخذت أنيابه تعمل فيه عملها فهشَّمته إلى قطع خشبية صغيرة راحت تطفو سارحة مع الأمواج مشتتة في مختلف الاتجاهات.

وانتهت رحلة أبو محمد بغوصه في غياهب هذا المجهول العميق بعد أن حاول جاهداً مقاومة أمواجه العاتية فباءت جهوده بالفشل عندما نجح الوحش الكاسر بالتهامه، وعبر شريط ذكريات مضيء أمام عينيه جسَّد انتظار زوجته الحنون و أطفاله ثم استحال الضوء إلى سواد دائم.

جلست أم محمد منذ تلك الليلة على جمرات الانتظار الحارق، انتظار طويل عصفت رياح الخوف في أرجائه واستباحت الأفكار المرعبة كل لحظة آمنة فيه.

كانت تيمم شطرها إلى الشاطئ يومياً فتتكئ على أحد صخوره لساعات طويلة علَّها تحظى بقدومٍ مفاجئٍ لزوجها الغائب فتراه ملوِّحاً من مركبه كعادته وهو يشقَّ صفحة الماء عائداً إليها واستمرَّت على هذه الحال حتى جاء اليوم الذي وُجدَ

فيه أبا محمد ملقى على الشَّاطئ في مكان ليس ببعيد جداً وقد لفظته أحشاء الوحش كأنَّها لم تستسغ طعمه ففضَّلت التخلص منه.

بدا متآكل العينين مترهِّل اللحم الذي نهشه السَّمك أيضاً في الكثير من مناطق الجسد.

وظهوره على هذه الهيئة بعد غيابٍ طويلٍ خفف من هول المفاجأة وخَّلف شيئاً جديداً في حياة أمِّ محمد فهي الآن متأكدة أنَّ أبا محمد لن يعود إلى حياتها أبداً، وأنَّها لن تسمع صوته أو ترى عينيه تنظران إليها ولأطفالها نظرتهما العطوفة المعتادة.

منذ ذلك اليوم لم يعد أيّ شيء كسابق عهده وبدأ شبح الفقر والعوز يزور بيت الرَّاحل أبا محمد ترافقه ساعات جوع لا يقطعها إلا عارض طارئ كطرق باب المنزل من قبل أحد الأقارب أو بعض أصدقاء أبي محمد القدامى المعينين لهذه الأسرة المسكينة من وقت لآخر، لكنَّ هذه الإعانة مهما استمرَّت فإنَّها قد لا تكون دائمة وهي في كافَّة الأحوال غير كافية ومالك المنزل الذي تقطنه الأسرة سيطالب عاجلاً أم آجلاً بالأجرة المتأخرة التي لم تتمكن أم محمد من سدادها منذ وفاة زوجها قبل شهرين.

كل ذلك كان يدور في خلد أمِّ محمد ملتحفاً بأفكارها التي أصبحت مقتصرة فقط على إيجاد حل للخروج من هذه الأزمة وفي أثناء مراقبتها لوعاء الحساء الموضوع على النَّار والذي بدأ بالغليان كغليان رأسها في تلك اللحظة إذ أخذت فقاعات الهواء تظهر على وجه الحساء وتنفجَّر فقاعة تلو الأخرى كأفكارها المحتقنة المتعبة التي لا تجد بدَّاً من الانفجار ثم الاختفاء عندما لا تجد لها إلى الحل سبيلاً، ثم تعيد الكرَّة فتعود إلى الظهور من جديد على هيئة فقاعة جديدة وتستمر في التكرار كذلك حتى تستسلم إلى السّكون والهدوء كسكون القدر الموضوع على النَّار عند إطفائها.

سُمِعَ قرع خفيف على باب المنزل منذراً بقدوم أحدهم فهمَّت إليه ونظرت من العين الزّجاجيّة المثبتة عليه لتعرف من الطارق ثم فتحته مرحبة بصوتٍ مهللٍ:

أهلاً بالحاجة أم علي شرَّفتِ ونوَّرتِ، تفضلي بالجلوس.

أشارت بيدها إلى مقعدٍ طويلٍ موجود في باحة المنزل الخارجية تحت شجرة التوت الكبيرة التي كانت ولا زالت إحدى أهم اهتمامات أم محمد فاعتنت بها منذ أن قام أبو محمد باستئجار البيت كاعتنائها بأولادها وقام أبو محمد بتطعيمها حتى أصبحت تعطي من ثمارها الأطيب.

أم علي التي وصفتها الأسرة بأنها رسول الأخبار السَّارة هرعت إلى أم محمد حاملة البشرى إليها سائلة إيَّاها بادئ الأمر عن أحوالها وأحوال أطفالها، ثمّ تحوّلت إلى أسئلة من نمطٍ آخر تضمنت ماهيّة الأفكار حول مستقبل الأسرة القادم والذي ما زال مجهولاً للجميع ممهدة لفكرةٍ تجول في خاطرها وأرادت إخطار أم محمد بها.

اتَّجهت أم علي بخطى ثقيلة إلى المقعد وجلست، كانت امرأة سبعينية خطَّت صعوبات الحياة تجاعيد وجهها ودفنت عينيها في فجوتين عميقتين سوداوتين، لكنَّ وجهها كان مكتنز الوجنتين اللتين تشعبت فيهما شعيرات الدم الرقيقة الحمراء لتعطيهما لوناً زهرياً صافياً.

كعادتها حملت أم علي في زيارتها هذه الخير للأسرة المنكوبة، فزوجها الذي هو أحد أعز أصدقاء أبي محمد لم ينسَ يوماً أسرة صديقه الصغيرة ولم يبخل أبداً عنها بتقديم أي نوع من المساعدة رغم حاله المتواضعة.

بدت معالم البشر والراحة واضحة على وجه أمِّ محمد لكنها امتزجت بحمرة الخجل والارتباك عندما علمت أنا أبو علي قد دفع لمالك المنزل دَيْنَها.

ارتشفت أم عليٍّ رشفة من قهوتها ثم وضعت الفنجان على طاولة صغيرة أمامها ورفعت عينيها إلى أم محمد قائلة:

لديَّ عمل لك، إنَّه حلٌّ مؤقتٌ لتتمكني من تدبير أمورك حالياً.

فأجابت أم محمد بحماس: ما هو وأين؟ ... أنا جاهزة.

ابتلعت أم علي ريقها لتعاود الكلام الذي بدا كأنَّه يخرج من فِيْها بصعوبة بالغة فهي لا تعرف كيف سيكون رد أم محمد على كلامها حيث أنها لم تعتد هذا النوع من الأعمال.

_ في حيِّنا بناء حديث فخم من تسعة طوابق مالكه يحتاج إلى عامل للتنظيفات و إحضار بعض الطَّلبات إلى سكان الشُّقق، توقَفت هنيهة عن الكلام لتلحظ تأثيره على وجه أم محمد الذي بدأت معالم البشر تزول منه وحلَّ محلها تقطيب على الجبهة يرافقه شرود للعينين وتنهيدة في القلب ترتيلها: آه أين أنت يا أبا محمَّد، هكذا أصبحت حالي من بعدكَ.

ثمَّ استرسلت أم علي قائلة: بالإضافة إلى أنَّ القائم بالعمل سيتاح له السَّكن بدون أي مقابل مادي في إحدى غرف الطابق الأرضي لهذا البناء.

صمتت أم عليٍّ لدقيقةٍ ثمَّ قالت:

أختي أم محمد أعلم أنك لم تعتادي هذا النَّوع من العمل ولكن للضرورة أحكام وهذا هو العمل المتوفِّر الآن ريثما تتحسَّن الظروف فنجد لك عملاً آخر أفضل منه.

كانت هذه الكلمات دواءً شافياً لأم محمد بعثت في نفسها روح التَّفاؤل والأمل بمستقبل قد يصبح أفضل إذا تم تتويج طريقه بإكليل من الصَّبر الجميل.

تلوَّن شحوب وجهها قليلاً وبدأت تعود تدريجياً إلى سحنتها التي كانت عليها قبل أن تطرح عليها أم علي موضوع العمل، فشعرت الأخرى بالإرتياح لدى ملاحظتها ذلك التغيير الذي طرأ على صاحبتها.

تنهَّدت أم محمد قائلة: ما من حلٍ آخر... سأفعل ذلك.

بعد أن نهضت أم علي مودعة إياها منصرفة، وضعت أم محمد طرحتها على رأسها وانطلقت هائمة على وجهها، لم تدرِ في البداية لمن وأين تذهب ثم قررت المضيَّ إلى الشَّاطئ في زيارة مفاجئة لصديق زوجها الغادر الذي هانت عليه كل الليالي والأيام التي قضاها أبا محمد بصحبته، فلم يصبر عليه واستردَّ دَيْنَه منه بطريقةٍ غادرةٍ مستبيحاً روحه محتفظاً بها لافظاً جسده المهترئ على شاطئه فكان هذا هو الثمن المقابل لكل عطاياه المادية والروحية.

نعم... لم يصبر عليه كانت تردد هذا في نفسها فهي كانت لا تؤمن أنّ للبحر عطاءً مطلقاً فهو ككل شيء لا يرضى إلا بوجود بديل لعطاياه لكن البديل الذي انتزعه من أسرتها كان باهظ الثمن جداً، هل لا زال كسابق عهده قبل رحيل أبي محمد ؟؟

هل لا زالت أمواجه متلألئة تحت ضوء الشمس الساطع ؟؟؟ كيف هانت عليه عشرة صديقه هكذا؟؟

عندما ألقت أول نظرة على صفحة الماء الهادئة سلّمت أنّ لا شيء يضير هذا العجوز المنطفىء الإحساس لا أبا محمد ولا غيره، فهو العاشق المجنون الأناني الذي يُرضي غروره على حساب سعادة من يحب فيمنعه عن الأحباب والأصحاب ويمنعهم عنه مبتسماً بصفاء كأنَّ شيئاً لم يكن حتى لو كان الشيء هو تخريب حياة أسرة بأكملها وألقت نظرة على صيادين كانوا ينادون لبيع سمك طازج كانوا قد اصطادوه ساعتها... لم نذق أنا وأطفالي طعم السمك منذ وفاة أبي محمد قالتها في نفسها بحرقة واسترسلت: كيف يؤكل السمك وفي جوفه شيء من لحم أبي محمد فاغرورقت عيناها بالدموع وهمَّت عائدة إلى المنزل.

قضت الأسرة عدَّة أيام في جمع أشيائها ونقلها إلى المسكن الجديد، كان الأمر غريباً وموحشاً بالنسبة للأطفال الأربعة الذين اعتادوا على هذا المنزل، فقد قضوا فيه وقتاً طويلاً وخاصة محمد الابن الأكبر ذو الأربع عشرَ ربيعاً والذي كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات عندما انتقل أبو محمد وزوجته إلى هذا المنزل أما بقيَّة الأطفال محمود وعلي ورؤى المرتَّبة أعمارهم كالتَّالي ثمانٍ وستٍ وثلاث سنوات فقد أشرقت عليهم شمس الحياة في هذا المنزل.

لم يكن الأثاث كثيراً فقد كان كافياً فقط لقضاء الاحتياجات الأساسية للأسرة ذات الحال المتواضعة.

جالت أم محمد ببصرها وتفحَّصت بدقة كل زاوية من زوايا المنزل متصفِّحة دفتر ذكرياتها ففي كل شبر منه ذكرى ابتسامةٍ أو دمعةٍ.

أحداث عابرة بحلوها أو مرِّها قضى كل منها وقتاً متفاوتاً في مدَّته مع هذه الأسرة فكانت كالجليس المرافق لها في لحظات حياتها والذي يترك مقعده بهدوء في نهاية الأمر لحدث آخر وينضم هو إلى قائمة الذكريات.

راح قلب أم محمد يخفق بقوة وعيناها تدمعان بغزارة لدى مرور شريط الذكريات الخالد أمامها واخترق سمعها بلطف حفيف ورق شجرة التوت تحت تأثير هبوبٍ لنسمات عليلة تحمل معها برودة لطيفة تخفف من شدَّة حرِّ ذلك اليوم.

نَظَرَت إليها بلطف فشاهدت طيف أبي محمد يجلس على المقعد تحتها مبتسماً مهدهداً لصغيرته التي جعلت من حجره مقعداً لها والطفلة تضحك بملء صوتها فيعزف صدى صوتها سمفونية عشق بريء تملأ أرجاء المكان.

قطع صوت محمد شريط ذكرياتها العابر قائلاً:

هل من شيء آخر يا أمي؟

رنَت إليه بعينيها وقالت لا شيء يا بني، لقد فرغنا من نقل الأغراض وسأسلّم المفتاح لمالك المنزل بعد قليل.

كان محمد قويّ الملاحظة لحزن أمه الشديد على والده عميق التأثر به فحاول جاهداً أن يكون الابن البارّ المهوّن عليها بعضاً من مشاقِّ الحياة فرحيل والده المفاجئ جعله ينتقل فجأة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة أخرى تحمل طابعاً جديداً لم يعتد عليه بعد فاجتهد محاولاً أن يكون شابّاً على قدر من المسؤولية تستطيع معها أمّه أن تلقي بعضاً من أحمالها عليه فهو في نظر أمه ذاك الشاب الصغير الجميل الذي يشبه والده في الكثير من ملامحه وتصرفاته، كان قدومه إلى حياتها رائعاً فقد بزغ معه فجر أمومتها الذي جاء متأخراً بعد زواجها بسبعة أعوام، إنَّه فرحتها الأولى والكبرى بعد طول انتظار وحلم رائع من أحلام أبي محمد قد تحقق فعلاً.

كم تمنَّت له مستقبلاً مميزاً واعداً فحرصت على تعليمه وإرساله إلى المدرسة الابتدائية بالإضافة إلى الاهتمام بهواياته وتشجيعه عليها حيث كان الرسم هوايته الأساسية التي بدأت تنمو معه منذ نعومة أظفاره وتتجدد مع تقلبات مزاجه حتَّى أصبحت وسيلة للتعبير عن كل ما يعتمل في خاطره من أفكار و يختلج في صدره من مشاعر.

حاول الرسم بداية بقلم الرصاص وبرع فيه رغم صغر سنه لكنَّه تحوَّل إلى الرَّسم بالريشة والألوان وعمد إلى إبراز الألوان الزاهية في رسوماته فهو يعشقها ولا يحبُّ الظِّلال السوداء لعدم وجود تقارب بينها وبين خصال المرح التي اتَّسم بها وعشقتها فيه أمه ورأت فيها رونقاً أخَّاذاً يملأ حياتها بآمال جديدة.

فيما أحسَّت هي بالسَّعادة البالغة لدى مراقبته وهو يمزج الألوان بريشته بعناية وإتقان شديدين ثم يخطُّ بها تلك الخطوط الملونة على اللوحة التي كانت بيضاء قبل أن تغزوها تلك الخطوط فتبدو كعدد كبير من الفَراشِ الملوَّن الذي يحطُّ بغزارة على بياض اللوحة النَّاصع مجتمعاً ليعطي لكل رسم شكله المقدر له.

عملت الأم جاهدة على الإدِّخار وتأمين المال اللازم لشراء عدَّة الرسم، كل ذلك كان في حياة أبي محمد وعلى مرأى ومتابعة منه ولكن الآن بعد رحيله وبعد أن ضاقت على أم محمد سبل الحياة، انعكس تأثير هذا الضيق سلباً على حياة الأسرة عموماً ومحمد خصوصاً باعتباره الابن البكر الذي يعمل جاهداً مع أسرته لشقِّ طريق جديد لمستقبله يختلف كل الاختلاف عن منحى حياة الأسرة المعتاد، فمهنة الصَّيد التي احترفتها العائلة منذ عهد الأجداد لم تكن حلم محمد الآتي فهي مجرد هواية فقط وليس أكثر وأي رحلة صيد عنده كانت بمثابة أفق جديد لإثراء موهبته وتطويرها حتى صارت ريشته تبرع في تصوير ما يشاهده خلال

رحلاته، و سحر اللون الأزرق للبحر المتداخل مع زرقة السماء وقرص الشمس مرفقاً بخيوطه الذَّهبية الذي يعترض هذا المشهد منزلقاً شيئاً فشيئاً على جدران السماء إلى ما تحت خطّ الأفق مختفياً وراء ستار الليل المسدل بانتظار جلسة سمر يحضرها القمر وجيرانه من نجوم وكواكب والسَّهارى من أهل الأرض.

فإذا غنَّى القمر، تحوَّل هدوء الليل إلى صخبٍ وانشغلت العيون بنجوم ترقص طرباً فيغدو النَّوم آخر ما تصبو إليه ويعود قرص الشمس إلى البزوغ مرَّة أخرى بعد انقضاء ساعات الليل، كأنَّه كان مغموراً في الماء فانطفأ نوره ولهيبه ليعود إلى تأججه وبريقه ساطعاً مع انبلاج الفجر منذراً بقدوم يومٍ جديد.

راقب محمد في رحلاته الطبيعة بكافة تفاصيلها بتمعن شديد فأصبح هذا المشهد وغيره من أمثاله منبعاً لا ينضب من الأفكار والمشاعر تعمل ريشته على بلورتها في هيئة صور جميلة بألوان زاهية معبِّرة عن كلِّ ما تراه نفسه في الطَّبيعة من جمال أخَّاذ.

بعد وفاة أبي محمد اتَّجه مستقبل محمد ليعبر طريقاً جديداً من المتاهات المجهولة النهايات غير المرغوبة بالنِّسبة له حتى لو علم مسبقاً أيّاً منها تحديداً سيكون مصيره، تاركاً خلفه حلمه الجميل في أن يكون طبيباً بعد حين لعدم قدرة والدته على تحمل نفقات تعليمه.

بدأ محمد بتحمُّل بعض أعباء العمل مع والدته و شراء الطلبات لإيصالها إلى أصحاب الشّقق بالإضافة إلى مرافقة أطفال بعضهم والوقوف معهم عند باب العمارة لترقُّب حافلة المدرسة.

كانت نظرته إلى الحافلة نظرة وادعة يملؤها شوق وهيام خفيين يبدآن بالظُّهور تدريجياً كلما ابتعدت الحافلة باتِّجاه المدرسة متجليان بدمعتين تذرفهما عيناه على وجنتيه وكأنَّ هذه الحافلة حلم جميل يبتعد تدريجياً ليختفي في نهاية المطاف وراء الأفق فيصبح بعيد المنال.

و يعود محمد إلى لوحاته التي قضى أجمل أوقات حياته في رسمها فيقلبها لوحة تلو أخرى مسترجعاً في ذاكرته جمال تلك اللحظات، هذه اللوحات التي غلب فيها اللون الأزرق حيث كان كل من السماء والبحر مصدراً لإيحائه عند رسمها فكثيرة هي اللوحات التي قام برسمها عند مرافقته والده في رحلاته حيث كان يجمع لوازم الرسم في حقيبة خاصة ويتَّجه مع والده إلى الشَّاطئ، وعند وصولهما كان يفتعل الأسباب كي لا يرافق والده على متن المركب.

شعر الأب بمكنونات صدر ولده فلم يجبره يوماً على فعل ما لم يرغب به وأخذ يغض بصره عن تخلفه عن مساعدته فيمعن النظر مراقباً إيَّاه من بعيد متأمِّلاً تحركاته وهو يبحث بدقة عن موقع مناسب ليستقرَّ فيه واقفاً أو جالساً فيضع

حمَّالة اللوحات أمامه ويبدأ بتهيئة بقيَّة لوازم الرسم ومزج الألوان التي ينوي استخدامها في لوحته و يباشر تجسيد فكرته والتعديل عليها أحياناً بما يراه مناسباً.

تعامل الأب مع موهبة محمد باستيعاب كبيرٍ وأبدى رأيه بمختلف الرُّسومات واقترح إضافات عليها ربَّما لأنَّه وجد في ابنه شيئاً جديداً لم يعهده في حياته و طريقاً لو استطاع هو نفسه سابقاً أن يسلكه لحاول ذلك فلم يعترض ليس لأنه يكره له أن يكون صيَّاداً و يرفض أن يكون خلفاً لأجداده بل لأنَّه يرى أنَّ كل ما هو جديد يستحق المحاولة وأنَّ طرق المستقبل متشعبة ومختلفة وطريق النجاح متعدد المناحي ولا يتوقف على مهنة واحدة.

يوماً ما سترسم لي صورة رائعة وأنا أصطاد بصنَّارتي سمكة كبيرة.

كان يقولها معتدَّاً ضاحكاً علّ هذه العبارة تعطي محمداً دفعاً إيجابياً إلى الأمام يجعله يتقن ما بدأه.

أمَّا هذه الكلمات فقد كان لها وقع خاص ممهور بسحر مميز في نفس محمد التي يصطخب صدى صوتها: كم أودُّ أن يكون هذا اليوم قريباً.

شعر محمد بفقد كبير لوالده وكلماته وعاود النَّظر إلى لوحاته التي تمثِّل البحر في أغلبها متعجِّباً فقد رأى هذه اللجَّة تكتسي حلَّة من السِّحر البريء الأزرق

مراراً وتكراراً على عكس رؤيته لها الآن لأنَّه لم يعد لزرقتها معنى بعد أن غرق أبو محمد في خضمّها فهذا اليمُّ لا يليق به اللون الأزرق وأولى به أن يكون ذا لون أسود كسواد اللباس الذي ارتدته والدته حداداً على والده.

و بما أنَّ كل ما كان ذو زرقة في لوحاته انعكست صورته في مرآة قلبه انعكاس سواد الفحم الحالك لذلك أخذ يمزّق ببطء لوحاته لوحةً لوحة واستبق في ذلك كل ما يمتُّ إلى اليمِّ وذكرياته فيه بصلة و بينما كان يفعل ذلك كانت أسنانه تصطكُّ بعصبيَّةٍ بالغةٍ كمن يطحن بها تلك الأوراق بدل تمزيقها بأصابع يديه ويعود إلى أجزائها العديدة الممزَّقة فيعمل على تفتيت كل جزء على حدة بكل إصرار كسيَّارة تسير جيئة وذهاباً لتدهس كلباً ميِّتاً جار عليه الزمن فتُركت جثَّته ملقيَّة في وسط الشَّارع دون أن يفكر أحد في إزاحتها.

وينعدم الأمل لدى هذه القطع الورقيَّة التي تؤول إلى وريقات صغيرة جداً في أن تعود إلى سابق عهدها كلوحة حتى لو حاول أحدهم جمعها مرَّة أخرى.

لم تُبدِ الأم حراكاً لدى رؤيتها له وهو يفعل ذلك واكتفت بالصَّمت المرفق بدموع حزينة انهمرت وانقضت فانقضت معها الذِّكرى كسيل قويٍّ يأخذ كل ما يعترض طريقه من جوامد وأحياء ثم يجفّ كأن لم يكن يوماً.

حتَّى أنَّ قطرات العرق التي تساقطت من جبينها بفعل الارتفاع الشَّديد في درجتي الحرارة والرُّطوبة امتزجت مع دموعها فلم يلحظ الصِّغار محمود وعلي ورؤى بكاءها وأحاطوا بها وهي تجلس في تلك الظَّهيرة على حصيرة من القشِّ يتابعون أناملها وهي تحبك بالإبرة قطعة قماش لتخيط منها ثوباً صغيراً لرؤى، الأنامل تتحرَّك بكلِّ مرونة لتنقِّل الإبرة التي بدت كغطَّاس يسبح بين طيَّات القماش وعيون الأطفال ثابتة على الإبرة ترتفع معها كيفما ارتفعت وتهبط مع هبوطها.

اقترب محمد من والدته وانحنى أمامها متلمِّساً بأصابعه طرف قطعة القماش الملون مدققاً في تفاصيلها وألوانها.

لقد رأيت هذا القماش من قبل، قال هذا لوالدته فأجابت باقتضاب: إنَّه من ثوب قديم لي.

سافر خيال محمد برهة ليعود مع طيف والده وهو يطرق باب المنزل مع أنَّه اعتاد أن يفتحه بمفتاحه إلا أنَّه لم يفعل ذلك تلك المرَّة حيث وجد صعوبة في إخراج المفتاح من جيبه بسبب كثرة الأشياء التي يحملها وتتابعت الأفكار لتشمل الأمّ التي وجلت لدى سمع الطَّرق العنيف على الباب فهرعت لفتحه خاصة بعد أن رأت من العين الزجاجيَّة أنَّ الطَّارق هو زوجها، فزعت في بداية الأمر ثمَّ رأت ابتسامته اللطيفة فبادرته بالمثل وعلا صوته منادياً على الأطفال ليعطي كلاً من

أفراد الاسرة بدءاً من الأمِّ حقيبة نايلونية صغيرة تحتوي على هديَّة كان قد اختارها... نعم إنَّه ذلك الفستان الذي كان في حقيبة أمِّه، ما أروع تضحية هذه المرأة !!!

أحاط محمد أمه بنظرة عطف كبيرة وأخذ يمعن في تفاصيل وجهها الجميلة وعينيها الغارقتين في بحر عميق من الأحزان فتبسَّمت عيناه لدى لقيا عينيها وظهرت على ثغره ابتسامة لطيفة جعلت قلب الأم يرقص فرحاً وتفاؤلاً.

عندها تنبَّه الجميع لدى سماعهم نقراً على باب المنزل قالت الأمُّ حينها سأفتح أنا.

غرزت الأمُّ الإبرة في القماشة فتوقَّف الغطَّاس عن السِّباحة وبقي ثابتاً في المكان الذي أُمر أن يبقى فيه منتظراً يد أمّ محمد لتحرره مرَّة أخرى، ثم وضعت القماش على الحصيرة وقامت تخطو باتِّجاه الباب لتجد أنَّ الطَّارق هو زوجة أحد أصحاب الشقق فاستبشرت بمجيئها خيراً وعجَّلت بفتح الباب لها.

أهلاً وسهلاً بالسيِّدة زينب وقبل أن تكمل أم محمد ترحيبها أجابت المرأة باستعجال: مساء الخير أم محمد بحثت عن بواب العمارة ليخبرك بحاجتي إليك فلم أجده.

_تفضَّلي سيدتي لا يصحُّ أن تقفي على الباب هكذا.

_ لا ... لا داعي لدخولي أنا مستعجلة وأريدك في أمر مهم فقد دعوت بعض الضُّيوف على العشاء الليلة وأريدك للخدمة في منزلي كما أريد من ابنك محمَّد أن يحضر طلبات العشاء

_حسناً سيدتي لا بأس.

تابعت المرأة قائلة: لقد طلبت من تاجر السَّمك أبو علاء وجبة سمك مشويٍّ فاخر وستكون الوجبة جاهزة عند الثَّامنة مساءً، أريد من محمَّد أن يحضرها أمَّا أنت فأريدك في منزلي منذ السَّابعة.

هزَّت أم محمد رأسها بالموافقة وانصرفت السيدة.

عند السَّابعة مساءً صعدت أم محمد وهي تحتضن صغيرتها النَّائمة بين ذراعيها وفور وصولها إلى شقَّة السيِّدة زينب دخلت المطبخ ووضعت الطِّفلة النَّائمة على كنبة موجودة فيه وباشرت عملها فيما كان الأطفال في الأسفل يجهِّزون أنفسهم للخروج مع أخيهم محمَّد الذي وافق على اصطحابهم معه بعد طول إلحاح منهم.

أمسك محمّد بيديهما الصَّغيرتين وسار في طريقه باتِّجاه مطعم أبو علاء والطِّفلان يضحكان خلال مسيرهما ويغنيان بصوتٍ عالٍ واستمرا بذلك حتَّى آذنت رائحة الشِّواء الشَّهية الفوَّاحة بالإقتراب من المكان المقصود.

أعادت الرَّائحة الطيبة ذكرى طعم الشِّواء الذي نسيه الأطفال منذ وفاة والدهم وتعلَّقت عيونهم بالسَّمك المشوي الذي يغلفه أبو علاء بأوراق الألمنيوم ورافق كل ذلك اشتعال نفوسهم بذكرى والدهم فقد كان صيَّاداً ماهراً جعل منزله لا يخلو أبداً من هذا السَّمك الفاخر فلم يشتاقوا لمثل هذا الطَّعام إلَّا بعد رحيله.

أصبحت يدا محمد الآن مشغولتين بحمل أكياس الطَّعام فأوصى إلى أخويه بالبقاء قربه والسَّير بمحاذاته وفي أثناء سيرهم اعترضت طريقهم سيِّدة عجوز ثمانينية بدا عليها التَّعب والإرهاق لدرجة أنَّها كادت تسقط من شدَّة وهنها وضع محمَّد الأكياس على الأرض وعجَّل بإسنادها قائلاً على رسلك يا خالة، فأمسكت بذراع محمد ورفعت نحوه عينين هرمتين ثقيلتين هل بإمكانك إيصالي يا بني فمنزلي ليس ببعيد عن هنا أجابها محمد بالموافقة وأمر أخويه بانتظاره في حديقة صغيرة على طرف الشَّارع وترك معهما ما حمله من أشياء وقال لهما: لن أتأخر، لا تحرِّكا ساكناً ومضى والعجوز تتكىء عليه حتَّى اختفى عن نَّظر الطِّفلين اللذين بدأت رائحة الشواء تلعب بأعصاب معدتيهما حيث كانتا تئنان من شدَّة الجوع الذي عمل فيهما عمله فجلسا على كومة من العشب الأخضر، وقربهما الطَّعام ينظران إليه بشهيَّة كبيرة ومفتوحة قال علي: لو أكلنا قليلاً من هذا الطَّعام فهل سيعلم

بنا أحد ؟؟ سؤاله هذا كان له طابع إيجابي عند أخيه الأكبر محمود لكنَّه قال: لكنَّ والدتك أخبرتنا ألَّا نأخذ ما ليس لنا.

عبس الطِّفل الصَّغير لكنَّ الابتسامة عادت إلى وجهه عندما استرسل محمود: لا أظنّ أنَّ أحداً سيشعر بنقص الطَّعام إن تناولنا القليل.

بدأ الطِّفلان بنزع ورق الألمنيوم بدقَّة محاولين عدم تمزيقه و بدآ بالأكل، كان طعاماً لذيذاً لدرجة أنَّهما لم يتنبَّها إلى أنَّهما قد تجاوزا الحد وأكلا أكثر مما هو متوقَّع فأفراخ السَّمك كبيرة مما أدَّى إلى ظهور نقص واضح في الكمِّية فجأة ظهر محمد أمامهما، وقد شحب وجهه وعبس بشدَّة غاضباً عندما رأى أخويه في هذا المشهد الذي اعتبره دراماتياً واصفرَّ قلبه لشدَّة خوفه من ردَّة فعل أمّه لما حدث، وقف بلا حراك لا يدري ماذا يفعل وبدأ ينهر أخويه بشدَّة فارتعد الولدان خوفاً من أن يضربهما ولكن ما الفائدة من ضربهما بعد الذي حدث!!!!

جلس على العشب شارداً مسائلاً نفسه ماذا أفعل؟؟ كيف أعود إلى المنزل؟ ماذا سأقول لوالدتي؟ السَّمك غالٍ جداً كيف ستدفع قيمته إلى السَّيدة زينب؟ وما ردُّ فعل السَّيدة زينب على ما حصل؟

كانت هذه الأفكار هي ما يجول في باله وهو يحملق بذعر إلى الأكياس المفتوحة.

جلس محمود وعلي على بعد ليس بكبير من محمد وهما ينظران إليه بخوف وقد أدركا مدى خطيئتها وكانت السَّاعة قد تجاوزت الثَّامنة والنِّصف مساءً وبعد أن هدأ قليلاً، ربط محمد الأكياس بما تبقى فيها من طعام وجلس بقرب أخويه لا يدري كيف سيعودون إلى المنزل وإن عادوا فهو لا يدري ماذا سيقولون.

في ذلك الحين أخذت السَّيدة زينب تسأل أم محمد عن ولدها بإلحاح فشعرت الأخرى بالتَّوتر الذي زاد عندما تجاوزت السَّاعة التَّاسعة وشعرت فعلاً بغياب الأطفال، بدأ وجهها يكفهرّ والعرق يتساقط من جبينها أمَّا السَّيدة زينب التي زادت حدَّتها وأصبح كلامها أكثر قسوة فلم يكن يهمُّها غياب الأطفال بقدر اهتمامها بالعشاء الذي تأخَّر وصوله فبدأت بالصُّراخ على أم محمد: ها قد تجاوزت السَّاعة العاشرة أين ابنك ؟؟؟ ماذا سأقول للضيوف الآن؟ كيف تفعلين وأولادك بي هكذا؟

في تلك اللحظات كان الأطفال الثَّلاثة لا زالوا في مكانهم و قد غلب النُّعاس على الصَّغيرين فتوسَّدا العشب وناما أمَّا محمّد فقد بقي في مكانه يراقبهما وهو غارق في بحر الحيرة الذي خلت صفحته من أي زورق نجاة.

هبَّت زينب في وجه الأم بشراسة وازداد صراخها علوّاً ففزعت الطِّفلة النَّائمة، قامت من مرقدها ووقفت قرب والدتها مذعورة، مشدوهة العينين.

الأم تنتحب خوفاً على أطفالها الغائبين وزينب تصرخ بوحشية عليها بسبب فشل مأدبة العشاء غير مهتمة لمصير الأطفال والطِّفلة بينهما تنظر إلى كلٍّ منهما برعبٍ شديدٍ فهي لا تدري لماذا تصرخ تلك المرأة كما لا تدري لماذا انقلب وجه والدتها هكذا حزيناً بكَّاءً وما عادت تضحك وتبتسم لها كأنها تصبُّ جامَّ غضبها عليها.

فراحت تصرخ وتبكي بصوتٍ عالٍ عندها قالت زينب للأم: أَخرجي هذه الطفلة المزعجة من هنا.

أسرعت في خطواتها تنتقل في الأرجاء المحيطة بالبناء ثم مضت باتجاه مطعم أبو علاء تسأل كل من تراه في طريقها عن أولادها والطِّفلة على حالها من النُّواح والأنين المتواصل دون أن يأخذها أحد بعين العطف حتى والدتها التي انشغلت عن صرختها بصراخ مصدره عقل الأم وقلبها المحترق.

الأمُّ تمضي في طريقها ونسيم عليل يهبُّ ليدغدغ شعر الصَّغيرة ويوشوش وحدتها:

لا تصرخي يا صغيرتي فلن ينفع صراخكِ بين البشر.

لا تئنِّي يا عصفورتي ولا تبكي في عالمٍ لا تنفع فيه العبر.

لا تحزني فلكِ رب يرعاكِ ويرعى كل مظلوم على الأرض عَبَر.

نبــض وحيـــاة

تحت مظلَّة الليل المرصَّع بلآلئ الكون جلست هيَ وهوَ.

قالت: سأتعلَّق بك كما لم تفعل أنثى من قبل، فأقبض بكلتا راحتيّ على خصلات شعرك الأجعد وأشدّها بقوَّة كطفلة تعتلي كتفيك لتجد شعرك ملاذاً يحميها من السُّقوط.

فإذا به يشدُّ شعرها برقَّة ممازحاً وأمسك يدها فتابعت:

سألصق كفّي براحتك الكبيرة فتغيب فيها غياب زهرة ياسمين في عمق كفّك المتعرِّقة.

ضمَّها إليه فقالت: سأتوسَّد صدرك لأسمع نبض الحياة فيه فأنطلقُ منك وأحيطك بذراعيَّ لأمنعك من الرَّحيل فأعود إليك.

فأجابها:

تعالي لنكون معاً، أرضاً وسماء، كوكباً وفضاء، نجماً وأسراراً ..... نبضاً وحياة.

اشتدَّ بريق النُّجوم في الأعلى، وسلَّط القمر عليهما ضوءَه فتابعا رقصتهما مع الغبار الفضي الذي بدأت النَّجمات تنثره ليسقط بنعومة فيُلبس كل ما يستوطن الأرض ثوباً فضياً لمَّاعاً ويُضفي عليه لمسته السِّحرية.

عندها، تبرز القلنسوات الفضيَّة لشجر الصَّنوبر في قممها وتفترش الفضَّة صفحة النَّهر الجاري فترقص على أهازيج المساء مع مائه الرقراق.

ارتفعت وتيرة صوت السمفونية المبدعة لأوركسترا الطَّبيعة وعمَّ صداها الأرجاء فاختلطت الصَّرصرة مع النَّقيق وتناوبت بين بعضها أحياناً وهزَّت الريح أغصان الزَّمان فسقطت بعض أوراق الشَّجر القديمة والوليدة وبقي البعض الآخر ليصدح حفيفاً بإيقاع مميَّز.

نسماتٌ عليلةٌ تمتطي بساطها فراشات مضيئة تتوزَّع في فضاءات كثيرة تتنقل معها في حلّها وارتحالها.

ويحدث في ليالٍ كهذه يشهدها القمر هرج ومرج وتنظير بين ضيوف السَّمر من نجوم وكواكب لا يخلو من العبر.

قال النَّجم الأجمل في عيون سهارى البشر لكوكب هو منه أقرب:

أعلم أنّي لست النَّجم الأوحد، قد لا أكون الأفضل ولكنِّي منك أقرب وأرى أنّي بصداقتك وصحبتك أجدر.

فأجابه الكوكب: وما الفائدة التي تجنيها صداقتي وصحبتي لكرة من اللهب.

النَّجم: بريقي في سمائك أنور

الكوكب: لا أحتاج لنورٍ على أرضي فما عليها من حياة تُذكر، فأنا لست كالأرض وكل حيّ يرى ما هو لاستمرار وجوده أنسب.

النَّجم: شعاعي على سطح ترابك هو الدفء.

الكوكب: لم أطلب الدفء يوماً وما همَّني على الإطلاق ما يعجبني فيّ أنّي لست بك أَشْبَه فأنا كرة من تراب وهو أكثر ما يكون عن النَّار أبْعَد.

النَّجم: وما يضيرك في لهيبي فبزعمك أنا كرة لهب لا تضرُّ ولا تنفع !!!!

الكوكب: يكفيني أنَّ ترابي لكل زائر يأتي من كوكب الأرض مرتع وهو من لهيبك لن يقرب .

بدت نقطة ضوء بعيدة من غرفة نوم لأحد سكَّان الأرض فيها طفل وطفلة قد توسَّدا سريريهما وأمهما قربهما تطلُّ من نافذة الغرفة فتتطلع إلى الأعلى مراقبة القمر والنُّجوم وتقصُّ عليهما حكايا كل زمان ومكان وبحر وفضاء وأرض .

قام الطِّفلان من سريريهما، جلست الطِّفلة في حجر والدتها والطِّفل بقربها وأخذا يراقبان كما تراقب والدتهما قالت الطفلة مشيرة بإصبعها الصَّغيرة إلى النَّجم الأجمل:

أحبُّ هذا المصباح فبريقه هو الأروع.

أجابت الأم: إنَّه نجم يا صغيرتي وبريقه أجمل من بريق أيِّ مصباح على الأرض يعمل.

الطفلة: هل يسمعني إذا وجَّهت إليه الكلام؟

الأم: قولي له ما تشائين فهو لكثير من الأسرار يَحفظ.

هلَّل النَّجم واغتبط بشدَّة ونظر إلى الكوكب قائلاً:

ألم أقل لك أنَّ لهيبي يعطيني حسناً وبهاءً وأنا مكمن أسرارٍ للبشر ولا يضيرني إن لم يكن سطحي تراب ولم يكن للزَّائر البشري مرتعٌ.

كان ردُّ الكوكب ابتسامة ساخرة.

الأم: ماذا تحبُّ أنت يا وليد.

الطفل وليد: أحب صعود مركبة الفضاء وزيارة كوكب فهذا بالنسبة إليَّ هو الشَّيء الأجمل.

قهقه الكوكب بصوتٍ عالٍ قائلاً للنَّجم:

هذا دليل أنَّ كلامي من كلامك أنضج !!!

وفي بيت آخر من بيوت الأرض كانت طفلة تجثو على ركبتيها وتتضرع إلى ربها ليرحم والدةً غدت في عمق التُّراب منذ شهر و أكثر.

نظرت بعد مناجاتها إلى النَّجم الأجمل فقالت يا نجمي البهي هل تسمع ندائي فوالدتي أخبرتني وهي على فراش مرضها أن أرسل معك رسائلي إليها وأخبرك بأسراري.

بدا التَّأثُّر على النَّجم ونظر إليها نظرة عطف:

أنا معك يا صغيرتي.

عاود الكوكب السُّخرية رغم تأثُّره أيضاً بحال الطفلة.

طرقت باب الغرفة الجدَّة ودخلت تحتضن الطفلة وقالت لها:

أراك في صداقة مع أهل الفضاء من نجوم وكواكب.

الطفلة: النَّجم رسولي إلى أمّي فماذا يفيدني الكوكب.

الجدَّة: لو قدِّر وأصبحتِ من روَّاد الفضاء فستزورين هذا الكوكب الأقرب من النَّجم لتريه بوضوح أكثر.

ضحك الكوكب ضحكة غرور و رنا إلى الفضاء البعيد فرأى سفينة فضاء منه تقترب فقال للنَّجم:

جاءني زائر لينقذني من حديثي معك هذا الذي لا ينفع.

كان الزَّائر رائد فضاء تكررت زيارته للكوكب فأصبح صديقه الودود الذي لا يُرى غيره ولا يُسمع.

هلَّل الكوكب بنزول الزَّائر على أرضه وانشغل به عن كل ما يحيط به من مكونات الفضاء الواسع.

أيا زائري وصديق أيَّامي إنِّي أنتظر قدومك منذ أيَّام ولَّت وانقضت فلا تحرمني زيارة تجعل أيامي سعيدة وتجعل حال حياتي أفضل.

والنَّجم يراقب كل زيارة للبشري والكوكب كعادته منه يسخر.

تكررت زيارة الرَّائد فكانت أبحاثه كلها عن هذا الكوكب وبعد فترة توقفت كل الزِّيارات لسبب مجهول وانقطع كل خبر عن الرَّائد فوقف الحزن على أرض الكوكب مخاطباً إيَّاه أين صديقك الذي كان في عينيك الأصدق؟

نده النَّجم على الكوكب قائلاً: لقد ذهب ضيفك ذهاباً ليس بعده عودة ولن يرجع يوماً، فقد انتقل إلى ربه الأرحم منذ أشهر خلت فكفَّ عن انتظاره وانظر إلى ما حولك لتعرف أن اختياره كصديق وحيد لم يكن الأفضل والأكمل.

وبقي الكوكب ينتظر بعد وفاة صاحبه زائراً جديداً ومضت السنين والأعوام وهو في وحدة لا إنقاذ منها ولا مخرج.

فقال له النَّجم يوماً: قد تنتظر إلى الأبد بشريَّاً إن وجد فسيزورك لسنوات ثم يعـفّ عنك طوعاً أو كرهاً، ما دمت اخترت البعد والانتظار طويلاً فلن يرأف بحالك نجـم ولا كوكب.

أفتنتظر انتظاراً طويلاً ليس له نتيجة ولن تجد فيه من وحدتك مخرجاً؟!!

****

القلم لا يكتب وحده

فتحت عينيّ على صوت الهمس الصَّادر من أعماق نفسي، كأنّي سمعت هذا الصَّوت قبلاً لكنَّه هجرني منذ زمن طويل فلمَ يعود الآن بنبرته القويّة الدّؤوبة؟

هل أَرِقْت لسماعه أم أنَّ في عودته صدى لروح جديدة تجتاح أعماقي محمَّلة بأمل جديد كنت أزرع بذوره سابقاً وامتنعت عن ريّه فجأة ثم نَسيته فتحوَّل إلى سراب.

هل أنتِ الرُّوح التي تلملم ما تبعثر من أوراقي وتعيد بناء ما تمَّ تنسيقه من أفكار عفى عليها الزّمن؟

عاد الصَّوت الدَّاخلي يهمس بحدَّة: إنَّ ما فعلْتِه بي ليس إلا افتراء.

أيها الهمس الذي يستدرج ذاكرتي للعودة إلى الوراء قليلاً وإمعان النَّظر في ماضٍ كنت قد نسيته أو تناسيته لم تعود إليَّ بعد طول غياب؟

كل هذا كان يجول في خاطرها وهي تنهض من فراشها ببطء متَّجهة إلى مرآة كبيرة معلَّقة في الغرفة، نظرت إلى انعكاس صورتها في المرآة وتفحَّصت نفسها من رأسها إلى أخمص قدميها، وكأنّي لا أعرفني!!!

قالت هذا لنفسها بإحباط شديد، أقلقها لون بشرتها، أحسَّت بريقاً غريباً في عينيها حتى خيّل إليها أنَّ قوس قزح ينطلق منهما ليطرق باب المرآة بتخبُّط شديد فلا يستطيع النَّفاذ من الزُّجاج وينعكس مرَّة أخرى عائداً إلى مصدره فيعكس شراراً قوياً برَّاقاً يعطي العين سطوعاً شديداً.

قالت الأخرى الكامنة في نفسها بوجل:

كيف أرى هذا البريق بعين الخوف مع أنَّ شرارة منه كانت كافية لإخضاع أكثر الرِّجال قوَّةً وأصعبهم مراساً.

لا.... لا ... لا بد أنّي أعاني شيئاً آخر.

أزعجها منظر البثور الصَّغيرة الظَّاهرة على جبهتها.

لمَ لمْ ألحظ هذا قبلاً ؟؟!!

قالتها الأخرى بامتعاضٍ وغضبٍ شديدين.

و توالت الأفكار و تنوَّعت و تحوَّلت لتشمل نواح أخرى وهي تشدُّ وجنتيها بأصابعها و تضغطهما غير معجبة بتكوينهما ولأوَّل مرَّة أخذت تنظر إلى تسريحة شعرها الذي تموَّج مع تموجات الريح الداخلة إلى الغرفة من النَّافذة المفتوحة ترافقها خيوط شمس ذهبية أعطته رونقاً ذهبياً جديداً لمَّاعاً.

قالت الأخرى: شعر جميل ولكنَّه غير مسرَّح البتة وبررت بقولها: أمرٌ طبيعي لفتاة تركت فراشها منذ دقائق.

عادت صرخة الأخرى بحدَّة:

لماذا تبعدينني عن موضوعنا الأساسي؟ لماذا فعلتِ هذا بي؟

جزعت الفتاة وفتحتْ فجأة أحد الأدراج فأخرجت منه أحمر شفاهها، خطَّت به جبهتها ثمَّ عادت إلى وجنتيها فخطَّت على كل وجنة خطَّين متلاصقين ثمَّ عادت لتنقش فِيْها وترسمه بكل إتقانٍ فقالت الأخرى:

لديك شفاه رائعة !!! هل ستخرجين بوجه كهذا؟؟

عادت أفكار الفتاة إلى صوابها: وما يضيرني إن خرجت بوجه كهذا في عالم يملؤه النِّفاق والتَّعامل الخدّاع.

اسمعيني وعي تماماً ما أقول ولا تحولي الموضوع إلى اتجاه آخر، أعلم أنَّك لا تحبِّين الخداع وأنّك استغنيتِ عن كثير من أحلامك لهذا السَّبب لكن... لا تتركيني عالقة مع أحلامك هناك وأشارت الأخرى إلى باب ينتقل بها إلى غرفة مجاورة، رنتْ إليه الفتاة واندفعت باتجاهه، فدخلت عن طريقه إليها.

رفعت رأسها وقَّلبت مقلتيها في أنحاء الغرفة حتّى استقرّتا على مكتب صغير في إحدى الزَّوايا تجمَّعت عليه مجموعة من الكتب وتبعثرت عليه عدَّة أوراق بيضاء نامت عليها مجموعة أقلام بألوان مختلفة.

عاد صوت الأخرى ليصمّ أذنيها: حرريني ماذا تنتظرين؟

كطنين النَّحل راح الصَّوت يتكرر ويطنّ في أذنيها، اقتربت ببطء وجلست على كرسي وراء المكتب وأمسكت إحدى الأوراق بعد أن نفضت الغبار عنها عندها أخذت الذكريات تتساقط من سحب عينيها فنطقتها العيون دمعاً غدقاً و أمسكت بيدها قلماً أسكتَ وَقْع سيره على الورق ضجيج ذلك الصوت الذي ينبع من داخلها عندما بدأت تخطُّ به عبارتها التالية:

نعم سأعود ... فالقلم لا يكتب وحده.

****

عودة الخريف

أسرة مفككة

مع تداخل الخيوط الدَّافئة لشمس الصَّباح و انسدالها لتعبر نافذة غرفته وتنعكس على زجاج الصورة المؤطّرة معطية ضفائر فتاته القابعة فيها ألقاً بلمعان رائع.
كان يضع تلك الصورة على حافة سريره لتكون أوّل شيء تقع عليه عيناه عند استيقاظه وآخر شيء يراه قبل أن يطفئ نور المصباح ليغزو ظلام الليل أنحاء غرفته و يخلد هو إلى النوم.
و على اعتبار أنَّه يكره الدَّقائق الأولى المزعجة لشروق الشَّمس حيث إنَّها تسلِّط عليه شبح الاستيقاظ المبكِّر ليقطع سباته العميق فقد كان يبدو ككتلة مغطَّاة بملاءة كبيرة ممتدَّة على طول السَّرير لا يظهر منها شيء البتة أمَّا رأسه فقد خبّأه تحت وسادته بعد أن رفع أحد أطرافها المقابل لأنفه قليلاً ليتمكَّن من أخذ قسط منعش متجدد من الهواء الطَّلق المتوافر بكثرة خلافاً لما هو عليه تحت الملاءة التي نام جسده عليها فأغلق حدودها من كافَّة الاتّجاهات.
فجأة قفز الكلب (بِلْ) عليه بوزنه الثَّقيل فهبَّ مستيقظاً من نومه العميق شاعراً بألم في منطقة المعدة التي داسها الكلب و اقترب بل من رأسه ساحباً الوسادة من

على وجهه فزأر بشدَّة غاضباً ودفعه بكلتا يديه إلى الأرض ثم جرى وراءه طارداً إيّاه من الغرفة وعاد ليجلس على سريره بعد إغلاق باب غرفته و أخذ يسبُّ بل ويلعنه: عليه اللعنة كلب غبي، لا أدري لماذا تحتفظ تلك العجوز بهذا الكلب فهو مثلها لا يأتي منه سوى الإزعاج.

كانت العجوز هي جدَّته لأبيه و المرأة التي ربَّته بعد وفاة والديه .

كانت امرأة سبعينية توحي تفاصيلها مجتمعة بأنَّ مقتطفات فيلم حياتها التي تعيشها في مراحله الأخيرة.

بدا الهرم والتَّعب واضحاً عليها حيث هوت صحَّتها كثيراً بعد وفاة ولدها وزوجته في حادث سير كانت تعتبر نفسها أحد أهمّ أسبابه فهي التي أوعزت لابنها الذّهاب لزيارة ضريح والده و تزيينه بباقة من الورود في ذلك اليوم بحجّة أنه لم يزره منذ فترة طويلة فكان حادث السير الذي أودى بحياته وحياة زوجته التي رافقته يومها وتركا بين يديها حفيداً كرَّست كل لحظة من حياتها لتربيته وقضاء احتياجاته و تعليمه محاولة سدَّ الفراغ الكبير الذي خلفه رحيل والديه، إلّا أنَّها لم تفلح في انتزاع بذور الشَّر التي زرعها فيه رفاق سوء كان يتردد عليهم لساعات طويلة من النَّهار ومعظم ساعات الليل ومع مرور الأيام انتشت البذور وتفرَّعت فغدا شابّاً معروفاً بطباعة السيئة و أنانيته الواضحة و التي كانت تظهر في تعامله مع كافَّة

المحيطين به خاصَّة جدَّته العجوز حيث كان ينهال عليها بحجارة من القسوة البالغة كلما التقيا خارج غرفته في أي بقعة من بقاع المنزل .

نظر سعيد دوماً إلى جدَّته العجوز على أنَّها شيء ذميم معدوم الفائدة متناسياً دورها في الاهتمام به مذ كان طفلاً واضعاً حكاياتها التي كانت تلقيها على مسمعه آنذاك على رفٍّ مهمل فغطَّاها الغبار حتَّى لم يعد لها أي أثر في نفسه مع مرور الأيام .

كان سعيد يرغب ضمنياً في التَّخلص من جدته العجوز ففي خاطره جالت أفكار كثيرة :

لو ماتت العجوز سأعيش بالطريقة التي تمليها علي نفسي في هذا المنزل الذي سيكون لي وحدي فلن يكون هناك بعد ذلك من يمنعني في حال أحضرت صديقاتي إلى المنزل أو أحضرت بعض الأصدقاء لمشاهدة الأفلام التي حظرتها العجوز عليّ لأنها كانت حسب رأيها خادشة للحياء فأضطر دوماً لمشاهدتها خارج المنزل عند أحد الأصدقاء أو في بعض النَّوادي التي يرتادها الشبَّان لهذا الغرض كما أنّي سأتقدَّم للزّواج من حبيبتي التي رفضت جدتي دوماً مرافقتي لخطبتها من والدتها لأنني في نظر العجوز رجلٌ دون المسؤولية و يتنهد... يا لغباء تلك المرأة وتصطخب أفكاره ماذا يمكن أن تفعل تلك العجوز بالأساور الذهبية

النَّفيسة التي ترتديها؟ والمزرعة والنّقود الكثيرة التي ورثتها عن جدي في حسابها المصرفي ألم يأن الأوان ليصبح كل شيء من نصيبي؟

كم أخشى من غباء العجوز التي يمكن أن تهدر هذه الثروة بكل بساطة إذا احتاجت إلى علاج طبّي مثلاً وما سيكون مصيري إن فعلت!؟

لكم بقوَّة الوسادة التي كانت أمامه واللعنات تنبثق من بين شفتيه كالقنابل ثم استقام على قدميه واتّجه نحو باب الغرفة حافي القدمين بعد أن ركل حذائه الذي كان يعترض طريق سيره، فتح باب الغرفة ورنا بغيظ إلى الغرفة المقابلة لغرفته والتي كانت غرفة الجدَّة فوجدها مغلقة الابواب ثمَّ همّ إلى درجات السلم يهبطها ببطءٍ وهدوء قطعه نباح الكلب (بل) و صوت الجدَّة وهي تداعبه و تحادثه في الغرفة التي تقع أسفل الدرج والتي كانت تمثّل المطبخ، ف(بل) الذي كان منذ لحظات طريد غرفته اتّجه بعدها مباشرة إلى غرفة العجوز التي استقبلته بكل بشاشة و طيبة وهمَّت بتحضير طعام الفطور له فهو بالإضافة إلى كونه كلبها المدلل كان كما تقول دائماً للآخرين الذين ينتقدون اهتمامها المبالغ به

إنَّه أحد الأرواح الغالية التي خلقها الله للعناية بنا و التّخفيف عمَّا يعتمل في نفوسنا من آلام و هموم، فلم لا نعتني بها نحن أيضاً؟

شيء ما كان دوماً يثير في نفسها آلام الخيبة والحسرة بداية ثم يتحوّل الشعور إلى ابتسامة ساخرة تظهر تفاصيلها على وجهها فتزيد من تجعّد وجنتيها المتغضنتين.

إنَّها تلك المقارنة المضحكة بين حفيدها و الكلب، لم تصل العجوز إلى تلك المقارنة حتَّى امتلأت الكاس وفاضت وعلمت أنَّها أمام عطب أبدي يستحيل إصلاحه، كم كان الكلب لطيفاً و كم كان حفيدها جاحداً وعبوساً, لمعت في ذاكرتها عينا الكلب، في الأيَّام التي لازمت فيها سريرها إثر معاناتها من آلام المفاصل المبرحة فلم يبرح الكلب غرفتها طيلة فترة مرضها كما لو كان الممرض لها أو الصَّديق و بعد تفكير طويل متردد تخيَّلته كما لو كان الهيئة التي تمنَّت أن يكون عليها حفيدها فتنهَّدت بحسرة.

بدا وجهها جميلاً طيّباً رغم كبر سنِّها كان هذا إحدى المشيرات التي تدلُّ على جمالها في أيَّام صباها وتلك الضَّفيرة السَّوداء التي ظهرت بها في أغلب صورها والتي استحالت بعدها إلى اللون الرَّمادي كانت ملازمة لها دوماً ولم يطرأ على صورتها هذه التي كانت ملتصقة بذاكرة سعيد أي تبديل منذ كان طفلاً وحتَّى الآن و كان يبدي امتعاضه الواضح كلَّما حاول أحد الجيران أو المقرَّبين مدح بشاشة وجهها وملامحه الطيّبة وبقيت هذه العلاقة التي شابها الشكّ بالحفيد من منظور الجدَّة و الكره الأعمى للجدة بدون أسباب واضحة من منظور الحفيد هي السَّائدة

و المستمرة طول تلك السَّنوات الطَّويلة بدون أي بارقة أمل تنير درب الخلاص لكلا الطَّرفين.

دخل سعيد المطبخ تصحبه ملامح وجهه العبوس ومضى متَّجهاً إلى الثلَّاجة التي أخرج منها زجاجة من المياه الباردة أخذ يتجرَّعها ببطء.

كعادته منذ سنوات لم يلقِ سعيد على جدَّته تحيَّة الصَّباح فبادرته الجدَّة:

صباح الخير يا بني

نظر إليها بازدراء ثمَّ أشاح بوجهه عنها بينما خرجت من بين شفتيه الكلمات بصعوبة من يقوم بعمل شاقٍّ مجيباً: صباح الخير

سحب سعيد الكرسي وجلس إلى طاولة كانت الجدة قد بدأت بإعداد الفطور وترتيبه عليها.

أسهم في البخار المتصاعد من كوب الشَّاي الموضوع أمامه و لوى شفتيه عندما رأى انعكاس صورته بشعره الأشعث على صفحة الشَّاي السَّاخن، نفخ فيه محاولاً تبريد محتواه فتجعَّدت الصورة وتشوَّشت حتَّى أصبحت معدومة الهوية وعندما رفع الكوب إلى شفتيه ليأخذ الرّشفة الأولى أزعجه صوت الجدة التي بادرته قائلة: سأضع لك قائمة بحاجيات المنزل المطلوبة لهذا الأسبوع لتحضرها اليوم.

فأجابها بعصبيَّة وبشكل فوري:

أنا مشغول أحضريها أنت .

ثم أمسك قطعة الخبز المدهونة بالجبن و قام من مكانه دون أن ينتظر كلمة أخرى من العجوز أو ينظر إليها.

ومرت الخيبة المعتادة على أعتاب قلب العجوز وحقنت الدُّموع في عينيها لأنَّها لم ترغب يوماً أن تظهر باكية أمام أحد وعلى الأخصِّ حفيدها الذي يشعر بقوَّة نصر- عجيبة عندما يرى حزنها وألمها، و تعود إليها ذكرى ذلك اليوم الذي توفي فيه والداه و تصطخب في نفسها أفكار متكررة هذا الحفيد هل هو عقوبة من الله؟

ماذا فعلتُ في أيَّامي السَّابقة حتَّى أعاقب في كهولتي عقوبة كهذه؟

هل أنا حقاً السَّبب في فقده والديه أم هو القدر و مشيئة الله؟

قطع (بل) ضجيج أفكار صاحبته عندما قفز أمامها و اقترب منها ملامساً قدميها فعادت إليها ابتسامة لطيفة نفت عنها تقطيب وجهها وقالت موجّهة الكلام إلى بل:

عزيزي بل لنذهب إلى السُّوق سأشتري لك شيئاً لذيذاً .

انطلقت العجوز إلى السُّوق بمرافقة كلبها تحمل على ذراعها حقيبة قماشية كبيرة الحجم اعتادت أن تأخذها معها عند التسوّق و مشت الهوينا، كان حذاؤها

منخفضَ العلو جداً عن الأرض مما يجعلها تتنقل فيه بسهولة مع أنَّها لم تحب يوماً هذا النَّوع من الأحذية إلَّا أن السنون هي التي فرضتها عليها فلم يعد بإمكانها التَّباهي بحذائها ذي الكعب العالي كما كانت تفعل أيَّام صباها وكلَّما سبقها بل قليلاً كانت توجِّه إليه الحديث قائلة:

لو كنت في شبابي لما كان باستطاعتك أن تسبقني هكذا... بل تعال إلى هنا.

أهتمُّ بنفسي فقط

لم يسأل نفسه يوماً لم هو هكذا ربَّما لأنَّه لم يكن يجد فيها عيباً أو أنَّه كان يعرف أنَّ هذا العيب موجود ومتجذِّرٌ في نفسه بعمق وقوَّة لكنَّه لم يهتم لذلك أبداً.

استمر برشف الشَّاي من كأسه واللامبالاة كانت واضحة على ملامحه و هو يتابع صوت خطوات جدَّته وهي تخرج من باب المنزل .

هه عجوز سخيفة قالها بصوت خفيض وهو يهزُّ رأسه يمنة ويسرة ...صَمَت فتابعت أفكاره:

كان بإمكانها ألَّا تزعجني و أن تذهب بنفسها منذ البداية هل ذهبت بها أفكارها المشؤومة إلّا أنني قد أهتم بها يوماً ما؟

سعيد، أيها الفتى الغبي افتح لي الباب بسرعة، كان هذا صوت فادي أحد أصدقاء سعيد المقرَّبين ممن عُرفوا بجهالتهم و سوء طباعهم، لم يفكر فادي في طرق الباب يوماً بل كان دوماً يصرخ هكذا مذ دخوله الحديقة الخارجية لمنزل سعيد هذا التصرف الذي أزعج جدَّة سعيد العجوز مما جعلها تزداد حنقاً لدى رؤيته أو سماع صوته.

فتح سعيد الباب وقال وهدير ضحكه يملأ المنزل :

ادخل أيُّها السَّافل يا لحظِّك الطيِّب فقد خرجت المرحومة إن شاء الله قريباً منذ قليل .

تابع كلامه و ضحكه قائلاً :

تريدني تلك العجوز أن أهتمَّ بها وبالمنزل .

فادي : و ماذا قلت لها ؟

سعيد ضاحكاً : قلت لها أنا أهتمُّ بنفسي فقط.

رفع الصديقان يداهما و ضرب كل منهما يد الآخر مصفِّقاً تصفيقاً ينمُّ عن اتفاق .

حفيدي لا يحبني!!

مضت العجوز تتهادى في مشيتها تهادي مويجات بحر ناعمة عقب هبَّة ريح خفيفة و الكلب يتحلَّق حولها أو يسير أمامها حيناً وخلفها حيناً آخر و قرقعة حذائها تعبِّر عن تهادي مشيتها ولولا طلَّتها الشَّائبة لظنَّها سامعه فتاة شابة فصوت ارتطامه بالأرض يعطيها شعوراً جميلاً وكأنَّها شابَّة تسير على الأرض.

أمَّا بل فقد بدا سعيداً بتلك النزهة مطيعاً لصاحبته التي كانت ولا زالت تمثّل أهمّ مالديه في هذه الحياة بعد الطَّعام وحمَّام السِّباحة طبعاً إلَّا أنَّها بالفعل كانت السَّبيل إلى كل ذلك و لو أنَّه تُرِك تحت رحمة سعيد لكان الآن قد مات قهراً ولبكت عليه عظام الدَّجاج بدل أن يلتهمها هو و يتلذذ بها.

ما رأيك بشريحة لحم كبيرة هذه المرة يا عزيزي ؟

قالتها العجوز عندما أصبحت على عتبة دكان الجزَّار و هي تنظر إلى الكلب الذي أخذ يهزُّ ذيله بقوة ومرح و كأنَّه يفهم كلامها حرفياً.

ضحك الجزار الذي سمع كلماتها وقال أسعدت صباحاً أيتها الجدة الجميلة قلقت عليك فأنا لم أرك منذ أيام خلت أخبريني هل من سوء ؟

لقد كنت أحضِّر لك طلباتك المعتادة يومياً إلَّا أنَّك لم تظهري حتَّى حفيدك لم يأتِ ولا مرَّة!!

فقاطعته العجوز بابتسامة لطيفة: و لن يأتي...

لم تكن تعلم إن كان عليها أن تجيب بذلك أم لا... إنه ليس إلا الجزار فهل على الجزار أيضاً أن يعلم أن حفيدها لا يحبُّها و لا يطيعها!

أصابها الاستياء للحظات و عضَّت على طرف لسانها يا لهذا اللسان الثرثار هل هو عدو للكتمان أم أنَّه احترق من شدَّة الصَّمت فخرج يلّوح بكلماته غير آبه بحجم سرِّيَّتها و فيما إذا كانت متاحة لسامعها أم لا.

وضع الجزار ما طلبته العجوز في حقيبة نايلونية كبيرة وأضاف عظم فخذ لخروف قائلاً :

هذه لك أيها العزيز بل تمتع بها .

نبح الكلب و كأنَّه على درايه بكل ما يحدث فكان نباحه هذا بمثابة كلمة شكر

أحنت العجوز رأسها للجزار شاكرة له حسن معاملته و مضت في طريقها والأفكار تقفز في رأسها :

يا لغرابة هذا العالم لو كان هذا الشّاب حفيدي مثلاً لما اضطررت أن أتحمَّل كثيراً من المشاق التي أعانيها لا أدري لماذا كُتِب عليَّ أن أعيش هكذا لكنّي بالفعل لم أعد أبالي كثيراً فالنَّاس يحبونني ولديَّ عزيزي بل.

سحر وبناتها الثلاثة

كان فادي هنا و ملأ حديقة المنزل صراخاً

تلك كانت سحر الجارة العزيزة التي لطالما وقفت إلى جانب الجدة في محنها مخففة عنها الكثير من آلامها.

كانت سحر امرأة خمسينية جميلة الملامح طيبة القلب، بهيَّة الطلعة انتقلت إلى عش الزوجية في الخامس والعشرين من عمرها تقريباً وأنجبت أفراخها الثلاثة في ذاك المنزل المجاور لمنزل العجوز والذي قطنته منذ ليلة زواجها فتعلَّقت بكل شبر فيه و لم ترغب يوماً في تغييره حتى بعد وفاة زوجها، كانت على دراية بكلِّ الأحداث التاريخية في المنطقة تلك التي حصلت منذ قدومها وعلى علم بتفاصيل الحادث الذي تعرَّض له والدا سعيد فهي الجارة المحبوبة التي لن تتخلى أبداً عن جارتها العجوز في محنتها لذلك سعت جاهدة للوقوف بجانبها و التخفيف من حدة ألمها لوفاة وحيدها كما أنَّها حاولت لعب دور الأم بصبّ القليل من حنانها في قلب سعيد و قرَّبته من بناتها الصغيرات بحكم الطُّفولة إلَّا أنَّها آثرت فيما بعد إبعاده عنهنَّ وعزاها في ذلك ما رأته من انحدار أخلاقه و سوء تصرفاته بل أبدت خوفاً شديداً منه خاصَّة عندما شعرت بميل إحدى بناتها إليه فعملت جاهدة على تحاشي وجود بناتها في حضرته و سقتهنَّ من كوب أفكارها المملوء

بالحقائق السوداء التي جمعتها عنه إلَّا أنَّ رحيق الحبّ كان قد ملأ قلب الفتـاة ولا مناص من الواقع الذي فرض وجـود طيفـه دائمـاً في منزلهـا في الأفـكار المنعكسـة لفتاتها على جميع جدران المنزل وفي عينيها التائهتين اللتين تبديان قبـولاً ظاهريـاً لما تقوله والدتها من كلام يعيش قلبها دور الرَّافض التَّـام له وينتظـر أقـرب فرصـة لتغييره.

سعيد و منى

في صباح كل يوم جمعة كانت منى الابنة الوسطى للجَّارة سحر تقضي وقتاً طويلاً في غرفتها منفردة بنفسها أمام مرآتها وهي تجرِّب فستاناً تلو الآخر مخاطبة نفسها:

الأزرق لالا هذا الثوب لا يُشعرني بالثّقة أظنّ أنَّه لا يجعلني جميلة بما فيه الكفاية...مممم الأبيض

ستقتلني أمّي لو ارتديت الأبيض فهي ترى أنَّ ظهوري بثوب قصير خارج المنزل يُسيء لسمعتي ويجعل مني لبانة تلوكها ألسن جميع من في الحي الأحمر

نعم الثَّوب الأحمر أنا متأكّدة أنَّه سيعجب سعيد فهذا اللون هو المفضل لديه كما أنَّ هذا الثَّوب يبرز مفاتن جسدي مع أنَّه ليس عارياً ولا قصيراً لذا أظنُّ أنَّه سيحظى بقبول الجميع والدتي وجميع من في الحي وسيجعل منّي جميلة الجميلات.

و ارتدت منى ذات الأنوثة التفاحية الفائرة الفستان الأحمر وسرَّحت شعرها الليلي الطَّويل الذي بدا كقطعة من الليل تسبح في أرجائها نجوم لامعة هي تلك الدَّبابيس التي ثبتتها عليه بفنٍّ وإتقان ثمَّ أخرجت حقيبة بيضاء من أحد درفتي الخزانة كما وقفت على رؤوس أصابعها لتتمكن من تحصيل الطُّول المطلوب لتصل يدها إلى علبة على الرَّفِّ الذي تحتضنه الدرفة نفسها فأمسكت العلبة

بكلتا يديها و فتحتها فإذا به حذاء نَّاصع البياض ذو كعب عالٍ قد أفاق من سباته بعد إخراجها له من تلك العلبة.

جرَّبت منى الحذاء و تسمَّرت أمام مرآتها قليلاً وهي تنظر إلى نفسها من رأسها إلى أخمص قدميها ثمَّ دارت حول نفسها عدَّة مرَّات وهي تتطلع بدقة و رضا إلى تفاصيل جسدها الفاتنة المبهرة من خلال صورتها المنعكسة في المرآة، فتحت باب الغرفة وانطلقت وانطلق معها صوتها الذي ارتفعت وتيرته:

ماما أنا ذاهبة إلى المقهى في الحي المجاور للقاء سعاد.

إلَّا أنَّها لم تكن سعاد بل سعيد الذي كان ينتظرها في ذلك المقهى المطلّ على الشَّاطىء و البعيد كل البعد عن المقهى الذي ذكرته الفتاة لوالدتها.

نعم لابد من الابتعاد عن حيِّنا والأحياء المجاورة فقد يراني أحدهم عندها سيخبر

والدتي على الفور ، لا بد أنَّها ستقتلني إذا سمعت أو رأت أنّي ألتقي و سعيد في الخفاء أسبوعياً قالت هذا في خاطرها واسترسلت :

والدتي ترى أن اللقاء بشاب في الخفاء جريمة كبرى لا بد أن تعاقب عليها أي فتاة فكيف إذا كانت الفتاة ابنتها و الشاب الذي تقابله هو سعيد القرد الأسود كما

تصفه الأم فبرغم شعره الذهبي اللامع وبشرته البيضاء المائلة للاحمرار، كان يبـدو للأم شديد القباحة بسبب سلاطة لسانه و تعجرفه و أخلاقه المنحطَّة.

لدى وصولها إلى المكان المنشود ألقت بسهام عينيها فأصابت قلب سعيد الذي وقف مستبشراً للقائها ، مدَّ يده على عجل مصافحاً إيَّاها وجلسا ....

الأجل المحتوم

في صبيحة ذلك اليوم تلبّس العجوز ثـوب الـوهن والمـرض و كان الشـعور بالسّـوء وانتظار ما هو أسوأ حليفها واستوطن شبح ثقيل أجفانها فما عادت قادرة على فـتح عينيها و استنكرت لأول مرة في حياتها نباح الكلب الذي عمـل جاهـداً لإيقاظهـا كما شعرت بثقل شديد في أطرافها لم تستطع معه رفع الغطاء مـن فـوق جسـدها المتعب فعادت إلى غفوتها .

لأوَّل مرَّة منذ أعوام طويلة لم يتناول باولو فطوره ، توقَّف عن الُّنبـاح و استسـلم هو الآخر للنوم بقرب العجوز علَّها تستيقظ بعد حين...

علا صوت ضجيج صادر عن سعيد في الغرفة المجـاورة حيـث كان يحـزم حقيبتـه مستعدَّاً لرحلة يومين يقضيهما في منزل فادي الريفي و انطلق بعـد انتهائـه عابـراً باب غرفته ملقياً نظرة استهانة إلى باب الغرفة المجـاورة حيـث وُجـدت جدَّتـه ... يبدو أنَّ العجوز لا زالت نائمة لو أنَّها تنام إلى الأبد (رددها في داخله)

و مضى دون أن يستوقفه شيء فلم يلقِ إليها بالاً و لم يفكر حـتَّى في طَـرْق البـاب ومحادثتها لمعرفة سبب الهدوء الذي يعتري المنزل حتَّى تلك اللحظة.

بعد يومين ... عاد سعيد من رحلته مشرقاً ثملاً يترنَّح في مشيته غير آبه لنظـرات ازدراء سكان الحي له إلَّا أنَّه توقَّف عن الصّياح و الغناء بعـد أن فـتح بـاب المـنزل

فوجده على حاله الذي تركـه عليـه بهدوئـه التَّـام، فحـتَّى أدقّ التَّفاصـيل لا زالـت موجودة كالمنشفة التي ألقاها على الأرض قبل خروجه ...لمَ هـذا الظَّـلام الدَّامـس ؟ أين الأنوار ؟

أين العجوز والكلب؟

صعد السَّلالم بسرعة وفتح باب غرفة الجدَّة وعلى ضوء المصباح الذي أشعله وجد العجوز المستلقية على فراشها والكلب إلى جانبها يعانق صدرها كما لم يفعل من قبل.

اقترب سعيد من فراش جدَّته وحملق في وجهها الذي جفَّ ماؤه وشحب لونه و غادرته الحياة بكل ألوانها حتَّى العينان غارتا في محجرين كللتهما زرقة مسودَّة فصفعه كفُّ الصدمة القوي عندما هزَّ جسدها فوجده جثَّة هامدة ....

ماتت العجوز

ألا يفترض بي أن اكون سعيداً؟

ربَّما هو الشُّعور بالذَّنب ما كان يلتهم سعادة سعيد فلم يشعر بالفرح كما كان يتوقع بل ظلَّ الأرق ملازماً له طيلة الوقت و طيف العجوز يلاحقه في كل مكان والكلب الذي توقف عن الأكل و النباح منذ وفاة العجوز بقي قابعاً في غرفتها مستلقياً على سريرها كناقوس ذكرى يعصر ألماً مجهول السبب يؤذي قلبه وعقله حتَّى فارق الحياة بعد عدة أيام .

وهكذا خلا المنزل من العجوز وكل ما يتعلق بها خاصَّة بعد أن جمع سعيد كل ما يخصُّ جدَّته و رماه وتحقق مراده في أن يكون المالك المطلق والوحيد لكل ما تركته العجوز من أملاك و أموال.

حسرة ما بعدها حسرة

رغم براءتها ... لم تستطع منى ابنة العشرـون عاماً مـن ردع تلـك المصـيبة الـتي خلّفت وراءها خيبة و حسرة وقضت قضاء مبرماً على حياتهـا و مسـتقبلها فقـد دمَّرتها ثقتها المطلقة بسعيد و ألقت بها في قاع جب لا مخرج منه فلا سـيّارةٌ تـرد ولا دلاءٌ تدلى لإنقاذها و إخراجها من بؤرة العـار الذي غمرهـا منـذ ذلـك اليـوم الذي التقت فيه سعيد في منطقة شجريَّة نائية بعيـدة عـن المـنزل فبعـد أن التهـم سعيد ابتسامتها بتلـك القبلـة أصـابتها غيبوبـة وجـدت نفسـها بعـدها طريحـة العشب لم يكن سعيد وقتئذ بجانبها

صرخت بولع : سعيد أين أنت ؟

نظرت بعينين مشدوهتين إلى فستانها الممزق ... لا لا يمكن

راحت تعول بشدة وتصفع نفسها وتجول بلا هدى في المنطقة النائية ....

في تلك اللحظة علمت أن لا عـودة لهـا إلى أحضـان والدتهـا و أختيهـا فانطلقـت هائمة على وجهها لا تدري إلى أين يؤول مصيرها...

زواج سعيد

طوى سعيد الصفحة التي عنوانها "منى" مراقباً بصمت رحيل أمها و أختيها عن الحي بسبب الشائعات التي دارت حول الأسرة بعد اختفائها و بدأ بفتح صفحة جديدة بعنوان آخر انتقاه جيداً هذه المرة فهو الآن سيد غنيّ يبحث عن زوجة من عائلة كريمة غنيّة، لم يطل بحثه فسميَّة ابنة السَّيد رمزي أحد رجال الأعمال البارزين في المنطقة هي الهدف .

لا لا يمكن أن ترفضني فأنا شاب جميل الشكل ميسور الحال !!

لم أعد ممن يستهان بهم بعد الآن لا شكَّ من موافقة والدها فوراً بعد أن أعرض عليه أن يشاركني في مشروع المداجن ،لا بد أن يفرح كثيراً عندما يرى أرضي الواسعة التي سيقام عليها المشروع و الأرباح الطائلة التي يجنيها مشروع كهذا.

تناسى سعيد كل ما يتعلّق بحياته السابقة بل حاول تغييرها جذريَّاً بدءاً من منطقة سكنه حيث انتقل إلى منزل أكبر في منطقة أكثر رقيَّاً إلى طبيعة عمله التي اتَّسمت بالدَّهاء فهو ذاك السِّمسار الذي يجيد تسيير مركب عمله وتغيير جميع الظروف لصالحه ليكون رابحاً دائماً حتَّى إن خسر في بعض النَّادرات فإنَّ خسارته لا تتجاوز حدوداً معقولة وضعها لنفسه .

بالفعل وبعد ثلاثة أشهر من تاريخه تمت الصفقتان صفقة زواجه وصفقة مشروع المداجن الذي حظي بقبول واهتمام السيد رمزي فهو عبد مطيع لكل ما يدرُّ أرباحاً طائلة دون التَّفكير أحياناً في مصدر هذه الأرباح وعلى استعداد تام لعقد أي صفقة ماديَّة كانت أم معنوية المهم أن تكون مُرضية له في نتائجها وأرباحها حتَّى لو كانت سبباً في تعاسة الآخرين أو خسارتهم كالتَّعاسة التي سببها لابنته سميَّة عندما فرض عليها الزواج من سعيد لأنَّ هذا الزَّواج بزعمه هو الأصلح للعائلة رغم معرفته بحبِّها لشاب آخر من عائلة فقيرة كان قد رفض طلبه بالزَّواج منها بسبب فقره فحكم على ابنته بسجن مؤبَّد سجَّانه سعيد وحاكمه المصالح والمال.

في هذه الفترة غاب طيف العجوز عن حياة سعيد و شبح منى الذي كان يلازمه ويقبع في وجه كل فتاة يراها غاب أيضاً حتَّى خيّل إليه أنَّ الخريف الذي عصفت رياحه بالأوراق الصَّفراء قد ذهب إلى غير رجعة ليبدأ ربيع جديد اسمه ربيع السيد سعيد .

أحفاد السيد رمزي

زواج سعيد من سميَّة فتح أمامه أوسع السُّبل و قاده إلى النَّجاح في صفقات عدّة كما استطاع سعيد أن يحوز على ثقة رمزي الكبيرة بحنكته ودهائه مما جعله بمثابة ساعده الأيمن إضافة إلى كونه زوج ابنته ووالد حفيداه المحببان المرفَّهان عادل وجنى ، شابهت جنى والدتها شكلاً ومضموناً، كانت جميلة رقيقة بوجه طفولي وضحكة ساحرة تشيّع قلب كل من يراها إلى جنان الإعجاب واللهفة وآلت كما والدتها إلى ضحية من ضحايا جدّها ووالدها عندما وافقا على زواجها من عماد الوريث الوحيد لصاحب أكبر مجموعة مصانع نسيج في المنطقة

- الوالد : أعرف ما هو الأفضل لك فلا تعترضي

_ جنى : لكنني لا أحبّه و لم أعجب به حتى ...

_ الجد رمزي : نحن أكثر علماً منك بمصلحتك و سعادتك

_ جنى : أنتما أكثر علماً بمصلحتكما فقط وأبعد ما تكونان عن سعادتي.

أشعل هذا المشهد الغضب في قلب سميّة الخامد واسترجعت في نفسها ذكرى ذلك اليوم الذي فُرض فيه سعيد عليها زوجاً إلّا أنَّها كانت كابنتها لا حول لها و لا قوة كما أن وقوف عادل في صف والده وجدّه زاد الأمر سوءاً فلم يكن أمام الأم

وابنتها سوى الإذعان لأمر السيدين الكبيرين المستبدين و السيد الصغير الذي ورث عنهما استبدادهما.

عادل ذاك الشاب الرقيق شكلاً المتحجِّر قلباً وعقلاً كان نسخة مصغَّرة من والده سعيد إلَّا أنَّه أكثر دهاء وشروراً، (هذا الشبل من ذاك الأسد) عبارة كان الجدّ رمزي يرددها كثيراً وهو يربت على كتف حفيده ضاحكاً و سعيد الذي لم يكن يعلم أن هذا الشبل سيتحول مستقبلاً إلى أسد يأكل كل شيء حتَّى هو كان يشاركهما الضحك بحبور بالغ و تفاخر أعمى.

طيف منى

في تلك الليلة أصرَّ سعيد على ابنته مرافقة خطيبها إلى ذلك الحفل ..

_سعيد: يتوجَّب عليكِ الذهاب فالحفل مهم و سيحضره باقة من أهم رجال الاعمال ، هذا سيكون أفضل لنا ولك .

_ سمية : لست مرتاحة لخروجها معه في وقت متأخر كهذا

-سعيد : لم أسالك رأيك واعلمي أنّي أدرى منك بمصالحنا جميعاً

أذعنت جنى مكرهة لأمر والدها ورافقت خطيبها إلى الحفل أمّا والدتها فكانت تجول الغرفة جيئة وذهاباً وتلقي نظرات ولهة إلى الشارع

- لقد تأخرا

- سعيد : يا امرأة ألا تفهمين .. إنهما في حفل

في اللحظة التي دقّ فيها نوّاس السّاعة للمرَّة الخامسة على التَّوالي توقَّفت سيارة أمام الباب الأمامي لحديقة المنزل الكبيرة تبعها صراخ زوجة بستاني الحديقة الذي جرى إلى بوابة المنزل وهو يحمل بين ذراعيه جنى مغشياً عليها.

هبَّ سعيد وزوجته اللذان أفزعتهما الصرخات إلى الباب فكانت الصفعة...

كان الثوب الممزَّق للفتاة هو أوَّل شيء تقع عليه عينا سعيد ... إنَّه ثوب منى لا لا إنَّها جنى .

راح طيف منى يجول و يجول ويـرقص أمـام ناظريـه بثوبـه الممـزَّق و يـدور حـوله و رأسه يدور معه ويدور حتى سُمع دوي سقوطه على الأرض بلا حراك .

القصاص

لطالما ظنَّ سعيد أنَّه نجح في الفرار من ذاك الخريف إلَّا أنَّه عاد إليه بقوَّة وعصف شديدين فهو الآن مستلقٍ على سريره كجثَّة هامدة ، عيناه فقط من تجولان سقف الغرفة يمنة و يسرة...

ذات صباح ليس ببعيد عن الحدث أجرى ولده عادل المقامر مكالمة هاتفية شـارحاً فيها ضرورة وضع والده في مأوى العجزة بحجَّة أنَّه بحاجة إلى عناية صحية دائمة.

حُمل سعيد على نقَّالة ووضع في سيارة جاءت لأخذه إلى المأوى فكانت الفاجعة!!

إنَّه طيف جدته العجوز يجلس فيها بانتظاه مستبشراً ضاحكاً....

****

محتويات الكتاب

الإهداء 4

الرصاصة لا دين لها 5

أنات العصافير 18

نبض و حياة 46

القلم لا يكتب وحده 53

عدة الخريف 57

أسرة مفككة 57

أهتم بنفسي فقط 65

حفيدي لا يحبني 67

سحر و بناتها الثلاثة 69

سعيد و منى 71

الأجل المحتوم 74

أين العجوز و الكلب 76

حسرة ما بعدها حسرة 78
زواج سعيد 79
أحفاد السيد رمزي 81
طيف منى 83
القصاص 85
محتويات الكتاب 86

تمت بحمد الله

القلم لا يكتب وحده
مجموعة قصصية
حسناء عبدالفتاح كردية

الطبعة الأولى
1441 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com